

كتاب

البيان في التمدن واسباب العمران

اعتنى بجمعه وتاليفه

الشاب النجيب والبارع الاديب

رفيق بك نجل المرحوم محمود

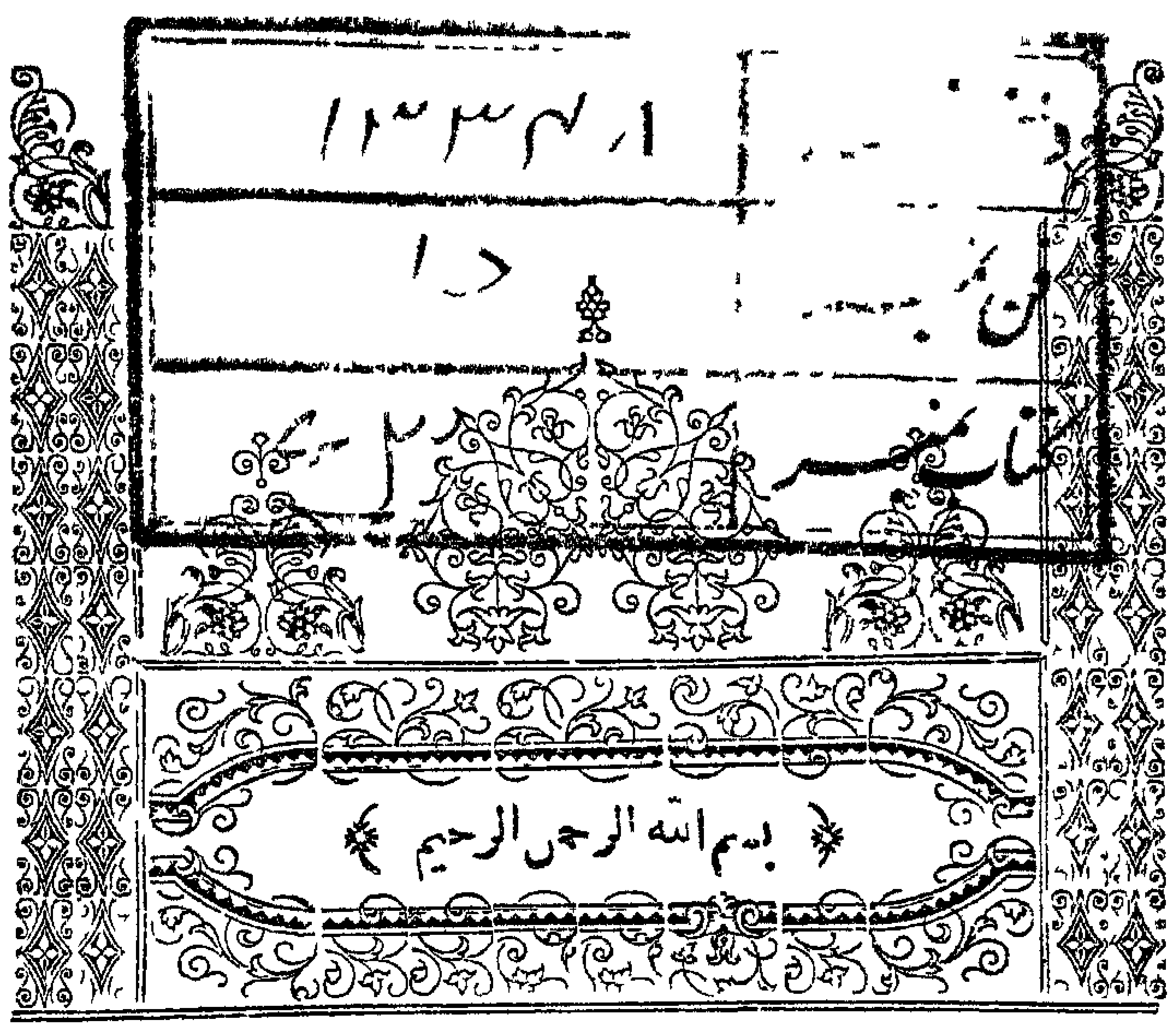
بك الشهير [illegible]

[illegible]

الطبعة الاولى

بالمطبعة الاعلاميه بمصر

سنة ١٣٠٤



الحمد لله الذي تفضل على هذا النوع البشري بأن زينه بالعقل
وجعله له حجة يرجع اليها اذا اكفهرت ظلمة الجهل من قضت
حكمته بأن التقدم والعمران موقوفان على العدل والاحسان
واتباع ما جاءت به الرسل من البيان وصلى الله على سيدنا محمد أعظم
الانبياء شأنا وأوضحهم محجة وبرهانا الذي امتدت أشعة نبوته
في جميع الاقطار فابانت للناس سبل التمدن بما انبعث عنها من
الانوار وعلى آله شموس الآفاق وأصحابه المنعوتين بمكارم
الاخلاق ﴿وبعد﴾ فلما كانت الالفة الجنسية والرابطة الوطنية
مما يدعوان الانسان الى كل عمل تنشأ عنه فائدة الاوطان لاسيما
وطننا الكريم فانه باحتياج عظيم لاسباب التمدن والعمران
واسترجاع

واسترجاع ما استلبته منه حوادث الازمان بادرت لجمع هذا الكتاب عسى ان يكون به منفعة استوجب بها الثواب ورتبته على مقدمة وثلاثة أبواب وتسعة فصول وخاتمة والله سبحانه وتعالى هو المسؤل ان يجعله بين الناس حائز القبول ويهدينا جميعا الى سبل الرشاد ويرشدنا الى ما به خير البلاد آمين

﴿ المقدمة ﴾

اعلم أن السبب الحامل على تأليف هذا الكتاب هو القيام بما يجب على الانسان من الخدمة الوطنية اللازمة على سائر أفراد الهيئة الاجتماعية التي تسعى في مهمات مصالحها بايجاد جميع الوسائل الباعثة على تقدمها وعمران بلادها والحث لذوي الغيرة من الامة على اتخاذ الطرق التي لا تنافي وجوب الاصلاحات الوطنية وترغيب افراد هيئة الاجتماع في الاسباب الموصلة لتمدن الاوطان وعمرانها وتقدمها وتوفير ثروتها ومنعا للاضرار اللاحقة بها من الاهمال الصادر عن الاهالي الذين أفضى بهم الكسل الى الاحتياج حتى في ملابس أبدانهم الى غيرهم مع وجود الكفاية فيهم ودرايتهم بالصنائع والتمسك بنفائس الفنون وذلك من المصائب الملمة بالاوطان التي جعلت هذه الامة متأخرة في ميادين الثروة والشهرة مجحفة للاوربا وبين اجتناء ثمرات متاعبها ومتصاص در بلادها والاهالي في غفلة من زمانهم لا يعرفون من التمدن سوى الاقدام على ما لا ترضاه الهمم البشرية المفطورة على حب التقدم والتعزز واباء الحقارة والتأخر

حالة كون لا يعد الوطن متمدنا ما لم تتوفر في أهله جميع الاسباب المدنية كالاقبال على طلب العلوم والمعارف وحب المعمور والصنائع وانشاء المعامل والمدارس واستحضار جميع الادوات الحسية والمعنويه اللازمة للحالة الحضريه والتزي بالمزايا الشريفه ليس التمدن الانهماك على الشهوات الحواسيه وحب الراحه والكسل الذي يفضي بالانسان الى الدرجة الحيوانيه هذا

ولما كانت الديانة الاسلامية لا تحظر جلب المنفعة ولا درأ المفسدة وحث على رؤساء المملكة وعلمائها تنوير بصائر الناس بايجاد السبل المؤدية للتمدن والترقي واعادة رونق مجد هذه الامة لما كانت عليه أولا من التقدم والسطوة الذين سهلا لها في اول من جيل تعميم شريعتها في عالب الاقطار وجعلاها أول أمة تقدمت باستخراج كنوز المخبآت العلمية مما شهد لها بذلك غالب الامم المتمدنة الاوروبية لكن ما طرأ عليها في السنين المتوسطة لعصرها من الحوادث العظيمة وتفريق الكلمة كما سنبينه في الخاتمة ذهب ببعض رونقها على انه اذا اتحدت رؤساء المملكة على استرجاع ما ذهب من مجدها بتدبيرهم بأقل من قليل اعادتها الى مركزها الاصلي التي كانت تدور عليه معارفهم الناشئة عن حسن السياسة والحكمة والتدبير وتقدمهم بين الامم باتباعهم خطط التمدن والتقدم الحقيقي لا كما يتصوره بعض العامة ممن انطبعت أفكارهم على السذاجة من انه بمجرد التبرج والزينة بالملابس الافرنجية يحوز الانسان درجات التقدم والكمال المدنية

المدنية على ان ذلك بعكس ما تقتضيه الحال في هذين الامرين بل
ومن الامور التي تلقي الاوطان في وهاد التأخر والاضمحلال فاما
الاول وهو لاكتفائهم بما ذكر عن البحث في الاصول المدنية
والاطلاع على ما كانت عليه هذه الامة من الحضارة والتقدم
وما آلت اليه حالها وكيف انتفعت بها الامم الاوربية بما نقلته
منها من العلوم التي نحن أحق بالتصرف فيها واستردادها
وأما الثاني فهو عين التأخر كما ذكرنا لانهم يسببون بذلك رواج
الاقمشة والبضاعة الاجنبية كما شأنه كساد بضاعتهم ويضيق
نطاق تجارتهم التي تتوقف على رواجها معيشة ألوف من الوطنيين
وذلك كالديباج مثلا فانه لا ينسج ويصير قوياما لتداوله بالشغل
عدة أيد كمربي دود القز ومستخرج الحرير وصانع ادواته ومصلحه
وصباغه وناسجه وصاقله وتاجره الى مائة مع عمله جملة اناس ربما
تكون أسباب معايشهم مقصورة على هذه الصنعة لان اغلب الفقراء
لا يستطيعون شغل زمن كثير بتعليم عدة كارات أو حرف اذ انهم
محسوبة على أهاليهم فيقتصرون على تعلم صنعة واحدة كهذه مثلا
وبعطالها يتعطل حالهم وفضلا عن ذلك فانه ينشأ عن وقوف حالة
التجارة الوطنية عدم اقدام أرباب الحرف والصناعات على اختراع
شكل جديد وعمل مفيد نظرا لرواج البضاعة الاجنبية التي تصدهم
عن اقتحام الاتعاب وتكبد المصاريف الآيلة الى الخسارة وبالجملة
فان ما يترتب على ذلك من الخسارة لا يحصى وهذا الكسل المعهود

على بعض الاهالى واكتفائهم من التمدن على الزينة والتبهرج كادكرنا وانكارهم كل عمل جديد مفيد للوطن بقولهم انه مناف للشرع وينسبون تلك الى المضار التى تحل بها البلاد بقبيح أفعالهم وسقط أقوالهم ومع ذلك يجهلون أن كل أمة متمدنة تجاور أخرى غير متمدنه توشك ان تكون فريسة لها (يعنى للمتمدنة) ومن تأمل أصول الشريعة الاسلامية يجدها تحث الامة على كل مايدفع عنها عادلة غيرها فكيف ونحن الآن فى زمن جديد قد اتسعت فيه دائرة المعارف وقرب تواصل الابدان والبلدان بما اخترعوه من السكك الحديدية والآلات الكهربائية والسفن البخارية الى غير ذلك مما سهل الاشغال وسبب رواج التجارات والتسابق اليها فى الاقطار فلا بأس من أخذ بعض المعارف التى ندفع بها كيد العدو وذلك بواسطة العلماء الاسلاميين وبيانهم للناس الطرق السهلة التى لا تنافى الاصول والقواعد الشرعية كما تقدم اذا اكتفاء غالب العامة بامور مزعومة هى من التمدن قد أضر بمصلحة الامة ضررا بليغا فهم لا يتركونها ويعودون لمركزهم الاصلى ولا يتمون واجباتها ليحصلوا على ثمرتها قلت شعرا

لقد كنت من هند وسوداء قلبها * توالينك بالاحسان والوصل والود
فلما أتت الى ليلى تحاول وصلها * فلا سمعت لى ولا أحرمت من هند

هذا ولما كان الغرض المقصود من هذا الكتاب هو بيان أصول التمدن الناشئ عنه عمران البلاد وان أول درجة من درجات التمدن

اتباع ماجاء به الشرع وسنه الرسول وان تكون الامة متحدة على نشر العلوم والمعارف حائزة كمال الحرية المؤسسة على العدل محبة للغيرات مستحوذة على خصال التأنيس مجتنبة كل ماتمجه الطباع المدنية من العوائد البربرية مصممة على كلمة الوطن وجلب مايعود نفعه على البلاد التي يكون أساس ثروتها وسبب تقدمها العدل الذي هو حياة الممالك اقتضى ان أبين ذلك كل باب على حدته ان شاء الله تعالى فاقول

﴿ الباب الاول في ميل الانسان للحضارة والتقدم بالطبع وحقيقة التمدن الذي هو اتباع ماجاء به الشرع ﴾

﴿ وفيه ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الاول في قابلية الانسان للتربية وطلب العمران ﴾

اعلم اننا اذا تأملنا في الانسان من حيث ناطقيته وعظيم بنيته وبما أودعه الله به من سر القوى العقلية والصفات البشرية وجدناه قابلا للتربيـة مائلا بالطبع للتعزز على ماعداه من جميع الحيوان متسلطا بصفة اداركاته العقلية على الموالید الحيوانية والنباتية والمعدنيـة محبا للتأنيس والاجتماعات البشرية ليـدفع بها غوائل من عداه و يأمن على نفسه فان الله سبحانه وتعـالى كما فضل الانسان على ماعداه من الحيوان بمزية العقل والادراك والناطقية التي يتحصل بها على الالفـة الجنسـية والتأنيس والاجتماعات البشرية التي يدفع بها الغوائل الحيوانية كذلك خص بقية الحيوانات على اختلاف

اجناسها وتباين أشكالها بما لم يختص به الانسان فخص بعضها بالقوة والبطش كالاسد لمهابة غيره وخص بالعدو من هو أضعف منه قوة وأصغر جثة كالغزال لينجو بقوة عدوه من كيد عدوه ومنها ما خصه بغلظ الجلد ليدفع عنه شر الحر كالفيل وكالسنور بالفراء وكثرة الشعر ليتقي بها شر البرد وكالارنب بكثرة السمع واليقظة ليأمن شر الاغتيال وهكذا جميع الحيوانات على اختلاف أجناسها فالانسان بالنسبة اليها يحتاج في جميع ذلك لاستعمال قواه الفكرية وحواسه العقلية كما لا يتم له ذلك الا بقوة الاجتماعات البشرية ولالفة التأنيسية التي هي فيه غريزة طبيعية وبها يمكنه اعمال جميع قواه الفكرية للاستحصال على درجات الحضارة والعمران واجتناء ثمرات التمدن والمهارة في سائر اعماله والاولوية له للاقامة والاتحاد وتفضيله الامتزاج عن الوحدة والانفراد لكان فريسة لغيره خائفا على الدوام في نفسه فتلك المزايا الشريفة التي حصلها كما ذكرنا وبقوة الاجتماع وانضمام القوى العقلية البشرية للبحث عن ما اشتملت عليه الكائنات من العجائب واستقصاء أسباب التمدن والتقدم يتحصل على نتائج السعادة الدنيوية والاخروية

ثم ان الانسان يختلف بعضه بالتمدن والحضارة وحب التقدم وبعضه بالدعة والسكون وحب الكسل والبعض لا يكاد يتميز عن الحالة الوحشية الا بالهيئة البشرية وبعض استعمال القوى العقلية فالنوع الاول من تمكنت منه اسباب التربية البشرية والحالة الحضرية المدنية

المدنية والنوع الثاني الذي لعدم استكمال ثلاث التربية فيه وتمكنها منه يكون عالة ماموله ما يجب الدعة ما قلال كسل والنوع الثالث هو الذي يعض أمته المدنية النوعية عن الاختلاط والامتزاج بمن جاوره من الامم ويكون في حالة خشنة بعيدا عن التمدن والحضار مشهورا بالجفاء والقسوة

فأما النوع الاول فهو غني باستكمال التربية فيه وتمكنها منه عن الحث على طلب أسباب الحضارة والتقدم وتأثير الهمة الانسانية فيه كافية له في جميع مقاصده اذ بها يتسلطر على من جاوره ويحوز كمال الشرف ونافذ المقام

وأما الثاني يعني المائل للدعة التي هي في الانسان غريزة طبيعية فهو الذي يكون مولعا بالقوة الشهوانية التي هي في الحقيقة خدمة للجسم مذمومة أحيانا في الانسان وتلك القوة هي التي تجذب الانسان عقيب تعب الاعمال الفكرية والبدنية الى الراحة والسكون كما تدفعه قوة العمل عن مركز البطالة وحب النشاط والحركة والاعمال وهاتان القوتان هما حالتان في الانسان لا تكاد ترجح احداهما عن الاخرى بل هما في الانسان على حد سواء

فالاولى تسمى قوة الشهوة والملاذ التي تدعو الانسان لجميع الملاذ البدنية وتلقيه في مهاوي التأخر وحب الشهوات الحواسية وتوصله الى الدرجة الحيوانية وأما الثانية فتسمى بقوة الامل والعمل وهي

التي تبعث الانسان على حب الاثرة والتقدم وكمال الاقتناص وبها تكون راحة الروح واستكمال فضيلة النفس والروح النورانية أو النفس التي تكون قد حازت الفضيلة التامة حيث تجمع في الانسان ضروب السلطنة العقلية وتبين له درجات الكمال الكاملة المدنية وهاتان اللذتان المتباينتان وان اشترك فيهما جميع النوع البشري على اختلاف طبقاته وتباين درجاته الأول لذة العمل منحة الهية ولذة الكسل والدعة محنة شهوانية

ومن فضل الله سبحانه وتعالى على عبده ان علمه وجوه المكاسب وأوقفه على دقائق الحرف والصنائع حيث ذم البطالة ومدح السعي بقوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) وقال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) أي اطلبوا المعاش الذي به قوام حياتكم وفضل الله هو رزقه الذي تفضل به على عباده والسعي مشكور في جميع الاحوال والبطالة لا تفيد صاحبها الا الذل والحرمان ومن شأن البطالة ان تبطل الهيئات الانسانية فان كل عضو أو جزء من أجزاء الجسم اذا ترك استعماله تعطلت حركته كالعين اذا أغمضت واليد اذا شلت ولكل عضو في الانسان حكمة الهية وحركة جعلها فيه لتتحد الحركات بعضها مع بعض وتصير حركة واحدة وهي حركة مجموع الاعصاب البدنية التي يقوى بها الانسان على السعي وطلب الرزق فان الله سبحانه

وتعالى

وتعالى لما جعل للحيوان قوة التحرك العظيمة لم يجعل له رزقا بسعى ما

ومن هنا لا ينبغى أن يتوهم ان هذا مناف للتوكل بل التوكل لا بد منه فى جميع الاحوال انما يكون مع مباشرة الاسباب فقد ورد فى الخبر عن خير البشر ان الله يقول يا عبدى حرك يدك انزل عليك الرزق وفى قصة السيدة مريم عليها السلام أكبر عبرة وأعظم معجزة لما كفاها سبحانه وتعالى مؤنة الطلب بأن أمرها بهز النخلة ولم يجنها لها وهو قوله تعالى (وهزى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى أن التوكل ليس التعطيل بل لا بد فيه من نوع من السبب فقال عليه الصلاة والسلام لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فان الطير ترزق بالطلب والسعى

نعم لا ينبغى الافراط فى الكد والجهد كما لا ينبغى قطع النظر عن الاستراحة فى بعض الاحيان والاعتدال اليق فى جميع الاحوال

ولنرجع الآن الى بحثنا الاول وهو ان نبين النوع الثالث الذى يفضل ألفته الجنسية النوعية عن الاختلاط عن جاوره من الامم المتمدنة كما تقدم وهذا النوع لا يكاد يعلم أى الامرين غالب عليه أحب الدعة والسكون أم حب الامل والعمل فانك تراه من جهة دائما يكلف نفسه باحتمال المشاق والاتعاب بتجوله بين الجبال

والقفار واقتحامه مواقع الشرور والاهوال ومن جهة أخرى لا تكاد ترى له عملا محمدا أبدا وهو في معزل عن سائر أسباب الحضارة والفلاح وافعاله أشبه بافعال الوحوش وما ذلك الا لانعزاله عن المخالطة والاستئناس بمن جاوره من الامم المتمدنة على انه قابل في كل آن للتربية والتهذيب لاستكمال القوى البشرية فيه وتمام الناطقية التي يمكنه بها التأنس بالناس واستعمال الوسائل الموصلة للحضارة والتمدن وحب العمران فان من منح الله سبحانه وتعالى ان خص الانسان بالصفات المعنوية التي هي أسرار الناطقية وجعل له العقل سراجا يهتدي به الى سبل الفوز والنجاح ويدرك ما اشتملت عليه الكائنات من العجائب الدالة على القدرة الالهية والحكمة الصمدانية ومن أهم ما أنعم الله به على عباده من الاسباب المؤدية الى التمدن والسعادة الدنيوية والاخروية ارساله الرسل بالشرائع الحقة وبيانهم للناس أسباب العمران انتشالهم من ورطات التهور والجهل بالحقائق والمصنوعات وارشادهم اياهم الى انتظام أحوالهم وتقدمهم وسلوكهم طرق الآداب الانسانية والتمسك بالاخلاق الحميدة المدنية ولا شك ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أعظم الانبياء شأنا وأوضحهم حجة وبرهانا وان شريعته هي الشريعة المؤسسة على العدل الداعية لمكارم الاخلاق ومحاسن الافعال كما سأبينه في الفصل الآتي ان شاء الله تعالى

﴿ الفصل

﴿الفصل الثاني في قابلية الامة الاسلامية للتمدن أكثر من عداها﴾

وذلك انا اذا اعتبرنا أصول الشريعة الاسلامية نجدها أساس التمدن جميع النوع البشري بما اشتملت عليه من الآداب الدينية والعدالة والحث على التمدن بجميع الخصال الحميدة المندوب اليها كل فرد من افراد الامة الاسلامية لكن لما كان غالب العامة مكتفيا عن تلك الاصول بعلم فرائضه الدينية فقط وكان الوقوف على معرفة تمام الاحكام الدينية مخصوصا بالعلماء والمتفقهين كان اكثر العامة يجهل تلك الاصول والقواعد المبنية على العدل الداعية للتمدن المرشدة لأسهل الغايات ولذلك اذا طرأ على مسامعهم ان الحاكم امر باجراء أمر ما في البلاد لم يطرأ على مسامعهم من قبل يتألمون ويضجون بقولهم ان هذا شيء مغاير للشرع على ان الحاكم العاقل يتحقق ان نظام هذه الملة لا يتم الا باجراء تمام الاصول الشرعية لانهم قد ينفرون من اجراء بعض المستحسنات لعدم معرفتهم بالحقيقة التي ربما يظهر لهم أخيرا انها غير خارجة عما أمر به الشارع وكيف فاذا اراد الاتيان بامر عقلي يكرهه ويأباه كل الانكار ورام بثه بين الناس وفصله عن ذلك فان الحاكم العاقل العادل لا يحتاج في جميع اعماله الى التحسينات والتقبيحات العقلية لان الشريعة الاسلامية ما تركت شيأ من الامور الدينية والدنيوية الاوصرحت معينات تفصيل ما يحسن العمل به وما لا يحسن ومعلوم ان ما لا يحسنه الشرع لا يحسنه العقل وقد

دونت الائمة المجتهدون فى ذلك كتبا لا تحصى فائدتها غير انه
الاصلاحات الحربية فى البلاد وبيان أسباب التمدن م
منوطة بالحكام دون العلماء كانت العامة تنكر كل عمل به
الحاكم الا باذن الشارع حتى تطمئن قلوبهم للعمل به كما تقدم
وجب على الحكام الاشتراك مع العلماء لبيان أسباب التسهيلات
الشرعية وبث أسباب السعادة وأنوار التمدن شيأ فشيأ لتمكن
التربية الاهلية منهم على ان آدابهم الدينية وواجباتهم الشرعية
كافية للتخلق بالاخلاق الحميدة والتأديب بالآداب الانسانية
والتهذب للعقول البشرية بخلاف ما هو مشاهد الآن من غالب
المدعين بالتمدن وحب الشرف الانسانى من الافعال التى تأباها
النفوس الاسلامية الشريفة التى تضطرهم الى اجتنابها آدابهم
الدينية وشهامتهم الاسلامية وأخصها صيانة العرض وبالجملة فان
هذه الامة قابلة للتمدن أكثر من عداها من الامم لما تأسست عليه
شريعتها من العدل الذى هو رأس كل فضيلة ولاتباعهم الاوامر
الالهية والتمسك بالاصول الدينية الداعية لخير ونجاح الدنيا وثواب
الآخرة فقد قال وحيد عصره أحمد أفندى فارس فى كتاب رحلته
المسمى بكشف المخبا عن فنون أوربا عند ذكره وصف باريز
وأحوال الفرنسيس ما نصه ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن
الحقائق ويودون لو يعلمون كل أمر من نصه وقد حذقوا فى كل علم
وبرعوا فى كل فن ومع ذلك فقد عزب عنهم أهم الحقائق وهو

ضرورة

ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤس ولو سلم لهم بان الكيسين وأهل المعارف والآداب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الاخلاق أو حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب لم نسلم بان الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولولا ذلك لأكل القوى الضعيف فان قلت كيف يأكله والحاكم من ورائه قلت ليس في كل الامور يمكن استحضار الحاكم والاستعانة به ألا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان وبطش القوى منهم بالضعيف أيكون لصاحب الحكم عين باصرة أو اذن سامعة للقصاص وكم من قضية تجرى بين الناس وفاتت اجتهاد أهل السياسة والايالة ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم ذلك أعظم رادع ووازع فاتصاف أمة بعدم الدين من أعظم ما يعين شرفها ويخفض قدرها انتهى كلامه بحروفه

﴿ الفصل الثاني في حقيقة التمدن الذي هو اتباع ما جاء به الشرع وسنة الرسول ﴾

اعلم ان أول درجة من درجات التمدن هو اتباع ما جاء به الشرع وسنة الرسول والاخذ بالنواميس الالهية وتصديق ما أنزل الله من الكلام على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام اذ ان كل من خالف الشرائع

معرضا عما أمر الله من اتباع سنن المعروف والاذعان للاوامر الالهية بعد أن ل جاهل قد اعمت بصيرته وساوس الشيطان وهو لا شك عديم التبصر بما عنده من ادراكات ذوى العقول البشرية المدنية ولا دربة فان كل ما اتانى به الرسل هو عين التمدن الحقيقى والعاقل البصير لا يشك فيما انزل الله وسنه الرسول مما يرشد الى سبل السعادة الدنيوية والاخروية ويبين للانسان عظم القدرة الالهية ونصرفه عما تقتضيه المشيئة وان ما جاءت به الشريعة الاسلامية من الاصول والاحكام هو الذى نشر التمدن فى أوطان العالم لما انبعث عنه من أنوار الهدى والعدالة التى عمت سائر الآفاق ومحت ظلام الجهالة والاستبداد ومن تأمل فيما كانت عليه أكثر الامم السالفة من التهور والسذاجة وقاسها بمن جاء بعدهم بعد ظهور الامة الاسلامية تحقق له صدق ذلك على انه لا يختلف فيه عاقلان فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم اتيتكم بشريعة حنيفية بيضاء لم يأت بها نبى قبلى ولو كان أخى موسى حيا لم يسعه الا اتباعى وقال عليه الصلاة والسلام ان الله بعثنى لتمام مكارم الاخلاق وكمال محاسن الافعال وقال تعالى فى كتابه الكريم (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) وقال تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فلا شك ان الله سبحانه وتعالى رحم عباده بهذا النبى الكريم فأتى بما لم يأت به نبى من قبله مظهرا حقيقة الحق للناس كاشفا لهم عما اشتملت عليه الكائنات من حقائق الحكم الدالة على وحدانية

الله

الله سبحانه وتعالى مبينا لهم تلك الطرق المؤدية لخير الدين والدنيا ليميزوا الحسن من القبيح ويفرقوا بين السقيم والصحيح فانتشل به صلى الله عليه وسلم هذا العالم من حضيض الحيرة والضلال وكانت شريعته سبب انتظام العالم وأمته خير أمة أخرجت للناس وبها انتشر التمدن فى الاقطار وانبثت فى الناس روح الحضارة والتقدم بما رفع عن عاتقهم من ثقل الجور والتهور والاستبداد ولما كانت الملوك الاسلامية لا تفتر عن الفتوحات وبث العلوم والمعارف فى الناس كانت الحضارة والتقدم ينتشران شيأ وشيأ فى الارض حتى تيسر لهم بزمن قليل تمدين أكثر العالم بواسطة فتوحاتهم العظيمة وتقدمهم فى البلاد التى نالت بحلولهم أسباب السعادة والترقى وكلما فتحوه من البلاد رغبوا أهله فى الدخول فى هذا الدين القويم وترك التهور والضلال وما مضى على ذلك الاسنين قلائل حتى انتشر الاسلام من الشرق فى الهند الى الغرب فى بلاد الاندلس (اسبانيا) والاستيلاء على هذا كله مما يتعذر على أعظم دولة الاستيلاء عليه بجملة قرون وهذا أعظم دليل على ما بنى عليه هذا الدين من قواعد العدل وأساس التمدن ومن نظر فى قوانين وأحكام باقى الامم المتمدنة التى توصلت اليها عقولهم بالاستنباطات التى وضعوها بقوانين مخصوصة العالم وجد أن تلك القوانين التى جعلوها أساسا للاحكام قل ان تخرج عن الاصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات بين الناس وعبرعن تلك

القوانين العلامة رفاعه بك المصرى بما معناه ما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية والنواميس الفطرية وهو عبارة عن قواعد عقلية تحسينا وتقبيحا يؤسسون عليها احكامهم المدنية وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية أقول وهذه القوانين هى القوانين المدنية المستعمل غالبها الآن عند الحكومة المصرية وبالجملة فان الشريعة الاسلامية هى التى نظمت العالم بالقوانين الالهية المبنية على العدل والانصاف كما تقتضيه الاوامر الصمدانية من نظام هذا العالم وبيان حسن معايشهم ومنعهم عن الجور والتصدى لحقوق بعضهم لاجل ان ينالوا بذلك معاش الدنيا وثواب الآخرة وان عين التمدن هو ما جاءت به الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام واتباع ما سنه الشرع وأمر به الرسول مع اتحاد الامة على طلب العلوم والمعارف واحراز التليد منها والطارف

﴿ الباب الثانى فى العلوم والمعارف ﴾
﴿ والحث على التمتع بظلها الوارف وفيه فصلان ﴾
﴿ الفصل الاول فى العلوم وأصول التعلم والتعليم ﴾
﴿ وبيان ما فى ذلك من النفع العميم ﴾

اعلم أن من أقوى أسباب سعادة الامة وتقدمها وتمولها العلوم والمعارف الجالبة لخير البلاد وثروة العباد التى بها يعلو منار التمدن

التمدن والسعادة وتكسب المملكة رونق المجد والسيادة وهذان
الامران هما ركنا الاوطان وأساسا عناها وتقدمها وبهما يتحصل
الانسان على ثمرات المجد والفخار ولما كانت العلوم هي التي
عليها مدار النجاح وبها يترقى الانسان الى درجات المعارف
والفلاح اقتضى ان نبين أولاً أصول التعلم والتعليم معرضين في ذلك
عن زيادة التطويل والاسهاب فنقول العلم هو ما يتوصل به الانسان
لمعرفة المجهولات من الاشياء التي لا تتم معرفتها الا بالبحث والاطلاع
وهو صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات وقيل العلم وصول
النفس الى معنى الشئ وقيل انه غني عن التعريف وقيل زوال الخفاء
من المعلوم والجهل نقيضه

والتعلم هو جزء من التربية المعنوية لان التربية نوعان التربية الحسية
وهي تربية الجسم وتنميته والتربية المعنوية وهي تربية الروح
يعني تهذيب العقل وترويض الذهن والفكر وقسم هذه التربية
العلامة رفاعه بك المصري الى ثلاثة أقسام القسم الاول تربية النوع
البشري يعني تربية الانسان من حيث هو انسان يعني تنمية مواده
الجسمية وحواسه العقلية القسم الثاني تربية أفراد الانسان يعني
تربية الامم والملل والقسم الثالث التربية العمومية لكل انسان
في خاصة نفسه وهي تربية الانسان الخصوصية فالقسم الاول طبيعي
الا انه كالشجرة الصغيرة التي تكون في أول نموها لا تكبر وتنمو
ويطيب ثمرها ما لم تتعهدها بالتقليم والماء في أوقات معينة وتكون

أرضها جيدة التربة طيبة الثرى فحينئذ تنمو ويحسن شكلها وطيب ثمرها ولذلك لا يكون هذا القسم غالبا الا بأيام الشبيبة والصبا الذين بفواتهما يفوت المرء ما يؤمله من تحصيل أسباب السعادة والسيادة ولذلك ينبغى لكل انسان أن لا يضيع أوقات شبيبته سدى مشتغلا بما يذيقه عاقبة مرارة الندامة والحرمان شعرا

ان الصبا فرصة ان كنت تكسبها * نلت المراد وان أغفلتها تزل

ومما ينسب الى الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه قوله

أليس من الخسران ان لياليا * تمر بلا علم وتحسب من عمرى

وبالجملة فالتعلم فى سن الشبوبية أسرع لتحصيل العلوم وأليق ومهما اجتهد الانسان عند بلوغه سن الكبر لا يستفيد ما يستفيده الشاب بزمن قليل من حياته

القسم الثانى هو تعليم أحكام الدين الواجب معرفتها على كل انسان وهذا غالبا يكون بهداية الله سبحانه وتعالى ومن رحمته سبحانه بالعبد أن ينور بصيرته وقلبه لمعرف حقيقة الحق وقدرته العظيمة التى تحير العقول وبأخذ بما جاءت به الرسل من البينات الا من أضله الجهل بالحقائق وأعماه الغرور

واعلم ان الله سبحانه وتعالى قد شرف دين الاسلام على ما سواه من الاديان بما خصه من المزايا الشريفة العظيمة وأجلها معرفة الله سبحانه وتعالى والاقرار بوحدانيته الصمدية والوقوف على حقيقة الموجودات

الموجودات الدالة على بديع صنعه والتمتع بالحقوق الانسانية بدون اعتداء الناس بعضهم على بعض بما اشتمل عليه من القوانين الالهية والاصول الشرعية التي مرجعها القرآن الشريف المنزل بالحق على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم فاذا لا يجب على المسلم تعليم الاحكام الدينية والاصول الفقهية والوقوف على دقائق العلوم الشرعية لقوله صلى الله عليه وسلم الغدوة في طلب العلم أحب الي من مائة غزوة وقوله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وما جاء بفضل العلم والعلماء قل ان يحصى

القسم الثالث هو ما يشمل الناس كبيرهم وصغيرهم ويشترك بمنافعه غنيهم وفقيرهم وهو على ثلاث مراتب الاولى هي العلوم الابتدائية التي قل ان يخلو منها انسان في الامم المتمدنة وهي القراءة والكتابة وأصول الحساب والهندسة والنحو والصرف فاما الكتابة فانه مندوب اليها لحديث استعن بيمينك أي بان تكتب ولا يخفى ما بها من الفوائد العظيمة والمنافع العميمة فان الله جل شأنه تفضل على عباده بان ألهمهم الكتابة التي بها ضبطت أحكام الدين ودونت أخبار الاوايل وأما الصرف فهو لاصلاح اللسان ومعرفة تراكيب الجمل الخالية من اللحن وهو أساس لسائر العلوم وأما الحساب والهندسة فهما غنيان عن التعريف اذ نفعهما بين الناس معلوم وهذا التعليم الاولى ضروري لجميع الناس على اختلاف أجناسهم اذ به يحسن حال

الهيئة الاجتماعية ويعم نفعه جميع الرعية سيما أرباب الحرف والصناعات اذا كان لهم المام بالكتابة تسهل عليهم الاختراعات والتفنن فى صناعتهم بما يطلعون عليه من الكتب الموافقة كل على حسب مرغوبه وبالجملة فان احتياج كل الناس لهذه العلوم كاحتياج الطعام للملح ولا غنى لاحد من العموم عنه

وأما التعليم الثانوى الذى مرتبته أعلى من مرتبة ما قبله فهو غالبا لا يلتفت للبراعة فيه أكثر الناس لصعوبة مسلكه فينبغى للحكومة تشويق الناس اليه وترغيبهم فيه مع اجراء الوسائل المسهلة لتحصيله كانشاء مدارس مخصوصة منتظمة وجلب معلمين وأساتذة ماهرين فان هذا التعليم هو السبب الاعظم لتمدين جمهور الامة وتنوير أبصارها وتقدمها فى ميادين المعارف والحضارة وأنواع هذا التعليم كثيرة فما ينبغى تعلمه منها واشتغال الاهالى بالاهم فالاهم منه علم الجغرافية التى يتوصل به الانسان لمعرفة ما اشتملت عليه الكرة من البحار والجبال والقرى والبلدان والطبائع وعجائب الحيوان ولا اقل من ان يتوصل به الانسان لمعرفة جغرافية بلاده ووطنه والعلوم الرياضية بانواعها والتاريخ والمنطق وعلم المواليد الثلاث والطبيعة والكيميا والادارة الملكية وفنون الزراعة والمحاضرات والانشاء وبعض الالسنة الاجنبية التى يعود نفعها على الوطن وهذه العلوم هى التى عليها مدار أكثر المدارس فى الامم المتمدنة ولمصر فيها بعض الاتقان الآن

وأما

وأما مرتبة العلوم العالية فهي اشتغال الانسان بعلم يتبحر فيه بعد
تحصيله علوم المبادى والتجهيزات كعلم الفقه والطب والفلك
والجغرافية من كل علم يجب تعلمه وجوب عين أو كفاية وهو أن يجول
صاحبه في أصوله وفروعه غاية الجولان حتى يكون كالمجتهد فيه
فيجب ذلك على افراد في كل قطر يكون لهم استعداد وقابلية لبلوغ
أقصى نهاية المعارف التي بها انتظام دين ذلك القطر ودنياه ليقوموا ببحث
ذلك ويكونوا كالمجددين فيه

وكما ان التعليمات الاولية يجب ان تكون عامة لجميع الاهالي شاملة
عموم الناس ينبغي ان تكون أيضا الثانوية منتشرة بين الامة وابناء
الاهالي القابلين لتعلمها واتقانها بخلاف العلوم العالية المعدة
لارباب السياسة والحكومة وابناء الحل والعقد فانه ينبغي جعلها
مقصورة على تلامذة وأناس مخصوصين مقيدين بقيود خاصة من
الغنا والاعتبار لا يحصلها الا ذوو اليسار من الناس الذين لا يضر
تفرغهم للعلوم العالية وانقطاعهم اليها اذ من العبث ومن الخطر
أيضا تفرغ صاحب صنعة ينتفع منها الناس لطلب هذه العلوم
المنوطة بارباب السياسة والاعتبار وتركه صنعته التي يتعيش منها
رغبة في دخول دائرة معالي المعارف التي لا تصلح الا لاهلها فينبغي
للحكومة عدم الترخيص للتلامذة الذين درسوا العلوم الاولية
والثانوية ان ينتظموا بسلك أرباب المعارف القصوى الا من فيه
اللياقة لها كما لا ينبغي حرمان التلامذة ذوي اللياقة من وظائف

الحكومة الاهلية اذ ليس من العدل ان تلميذا قضى ريعان شبابه في المدارس وصرف أكثر أيامه بطلب العلوم رغبة الاستخدام في الوظائف المحلية وان يشارك بما انتفع به عموم الرعية ان يقطع أمله منها ويحرم مما اكتسبه من العلوم بابعاده عن أسباب الترقي بالخدامات الملكية حتى يستولى عليه الاسف ويتضع شأنه بين الاقران ويرجعا اهله القنوط كما يستولي اليأس على غيره من التلامذة الذين لهم ميل لما تقدم ويرون ما حل برفيقهم فتبرد همتهم وتفل عزيمتهم فينشأ حينئذ الاهمال وعدم رغبة التلاميذ لقنوطهم من اجتناء ثمرات متاعبهم ثم انه متى استكمل التلميذ العلوم الابتدائية والتجهيزية وظهر ميله لخصوصيات تناسب حاله من الصناعة والفنون وغير ذلك مما يتحصل به على نتيجة حسنة وجب على أهله تمكينه منها واعانته على مرغوبه الا اذا كان مائلا نحو مطامعه الشهوانية فينبغي لهم زجره عنها او منعه ما استطاعوا وارشاده للوسائل المؤدية للسعادة والترقي

هذا وليس من اللازم ان جميع المدارس المعدة لتعليم هذه العلوم ان تكون على نفقة الحكومة بل ان المدارس التي تكون على نفقة الحكومة ومن خصائصها هي المدارس الحربية والملكية والحكومة تكون واسطة لتقوية جمعيات المعارف الخيرية في البلاد وتمد اليهم يد المساعدة مع ملاحظتهم فيما لابد منه في بعض الاحيان وعلى حسب استمداد الاهالي للاعمال الخيرية وميلهم للفنون والمعارف

والمعارف يجب عليهم ان يبذلوا الجهد بانشاء المدارس ونشر المعارف والعلوم كما ينبغي التدقيق بانتخاب المعلمين الماهرين بالعلوم المؤسسة عليها المدرسة المراد انشاءها وان يكون أولئك المعلمون متحصلين على شهادات تثبت معلوماتهم التامة بالفنون التي تضمن حسن مستقبل التلامذة الراغبين في التعليم فان وظيفة المعلمين وظيفة مهمة تستدعي دقة النظر ثم يجب اختصاص كل عشرة أو عشرين تلميذا بمعلم واحد يقوم بتعليمهم فان ذلك أيسر للتعليم وأقرب لتهذيب التلامذة وتأديبهم بخلاف ما اذا كان كل مائة أو مائتين يتلقون العلوم عن معلم واحد أو اثنين فانهما لا تتمكن منهم التربية كما ينبغي بل اذا كان كل عشرة تلاميذ مثلا يقوم بتعليمهم واحد يشتغلو بجانبه أوفق وعند تمام الدرس يحضر بهم الى محل التدريس العام الذي يجتمع فيه سائر التلامذة لتلقي دروسهم وينبغي للتلاميذ الاذعان لأوامر معلميهم وعدم مخالفتهم والنظر اليهم بعين التوقير والاحترام كما يجب ان يكون المعلم لين العريكة يمزج الشدة باللين مهذب الاخلاق حسن الخصال متحليا بحلي الكمال ليقتبس منه التلميذ السجايا الجيدة اذ ربما يستفيد الغلام من الاستاذ ما لا يستفيده من أبيه من الخصال لان المعلم هو القائم بتربيته وتأديبه وتعليمه وتهذيبه

ومن الاسباب المنشطة للتلاميذ رياضتهم في بعض الاوقات باعطائهم الفرص المناسبة للسفر القريب بالسكك الحديدية أو سواها

وتنزههم في بعض الاحيان انفع وأذهانهم وترتاح قواهم العقلية عقب تعب الاعمال الفكرية والتصريح لهم غب الدروس بالالعاب الخفيفة كالجلاستيق التي تكون أدواتها معدة لهم في فسحات المدارس وعند خروجهم في أوقات العرض من محال التدريس تكون لهم على سبيل الرياضة والتمرين ويستفيدون منها الرشاقة والنشاط والخفة بالحركات البدنية فان مدارس أوربا قل ان يخلو منها هذا الفن وبالجملة فان الامة التي تقبل على هذه العلوم والآداب المقدم ذكرها ينتظم حالها ويعلو منارشأنها وتنبث فيها روح الحضارة والتقدم واكتساب المعارف الجالبة لتمدن البلاد وحسن حال العباد

﴿ الفصل الثاني في الحث على طلب المعارف والتمتع بظلها الوارف ﴾

اعلم ان الله سبحانه وتعالى قد جعل في كل زمان أناسا ذوي دراية وذكاء يقومون بواجبات الاوطان مجددين ما اندرس من معالم الفضل والعلوم باذلين جميع ما في وسعهم لما به كشف دقائق حوادث المعارف البشرية فيشاركون الناس بما اجتنته عقولهم من رياض الحكم والفضائل ويخلدون بين الناس آثارا لا تزال تذكرهم بالثناء العاطر بما يتركونه من التآليف العظيمة والاختراعات النافعة العميمة التي يقوم بها أود البلاد وتزيد مصلحة العباد كيف لا والبلاد التي تقبل أهلها على مطالعة العلوم واجتناء ثمرات المعارف والفنون يكون لها في أوج السعادة المقام الاسمى وتنال أهلها في ميادين التقدم

وجه الالعاب الرياضية

التقدم والثروة والغاية القصوى فتتيه بالفخر والغنى على مدا الزمان ويشار اليها حينئذ بالبنان واما البلاد التي يكون اهلها في حضيض الجهل متمسكين بالكسل الذي يفضي بالانسان الى التأخر والاضمحلال فانها تصبح بعيدة عن الثروة والتقدم محرومة من أسباب ترقيها وعناها لا يكاد يكون لها أثر يحمد ولا ذكر يخلد بخلاف ما اذا كانت الامة متحدة على نشر العلوم والمعارف متفقة على اعلاء كلمتها وتوفير ثروتها كي لا تتأخر بين الامم ولا يفوتها كل ما به السعادتان الدنيوية والاخروية فتلك هي التي تحلي سطور التواريخ بجميل ذكرها وتقلد جيد الزمان بدرر فنونها كما هو مشاهد الآن وفي كل زمان كيف ان البلاد التي تتسع دائرة معارفها وتبلغ غاية الحضارة والتمدن تمتص جميع ما تدره البلاد المقصرة في المعارف القليلة الالمام بالفنون والصنائع وهاك شاهدا لا يقبل النقيض وهو ان البلاد المصرية متمثلا مازالت ولم تزل دار العلوم منطوقها والمفهوم لكنها قليلة الصنائع والفنون لانك اذا نظرت لمحصولاتها القطنية وجدتها كل سنة تبلغ نحو ثلاثة ملايين قنطار تقريبا وهذه الاقطان جميعها لا يستفيدون منها سوى أثمان اعيانها وأما التطويرات العملية المورثة للثروة العظيمة فانها تكون لاهل أوربا فمرادا في غبن عظيم بالنسبة لاوربا اذ ان هذه الثلاثة ملايين قنطارا من القطن يبلغ ثمنها ستة الى تسعة ملايين جنيها (ايره) فما تأخذه منه أوربا وترسله بعد تطويراته العملية ربما يبلغ العشرين

أو الثلاثين مايونا جنيها مثلا فانظر أيهما الرابح وأيهما المغبون فان قلت ألا تعلم انهم لا يتحصلون على هذا الثمن الابعد تكبد أضعاف ثمن الاقطان من المصاريف العظيمة والتكاليف الجسيمة كاجر الصناع والحياكين والصباغين والنساجين والشيالين (الخ) أقول وهذه هي الارباح المرادبها للبلاد النافعة للوطنيين ولو كان المصريون مولعين بحب المعارف التامة مجتهدين في تحصيل الفنون والصنائع لما احتاج الامر الى تكبد الاضرار بل كانت معاملهم الصناعية تغنيهم عن البضاعة الاوروباوية مع اغتنامهم ثمار ثروتها وهكذا حال سائر البلاد المتقدمة في الصنائع التي مهر أهلها بالاختراعات والفنون التي لا تستفاد الا بمزاولة كتبها ومطالعة وتحصيل العلوم التي دونها اذوو العقول من العلماء الذين صرفوا معظم حياتهم بنفع وطنهم وأمتهم وتعميم فوائد علومهم لا بالانهماك على الكتب الخرافية والقصص الملفقة الكاذبة التي لا تفيد صاحبها الا خمول الذهن والبطالة كما هو مجرب

ثم ينبغي لمحصل الفنون الصناعية والعلمية ان ينفع الناس بعلومه ومعارفه فان العالم من ينتفع بعلمه ليس العالم الذي ينفع نفسه وزاوية بيته ولو بحثنا ان ديارنا السورية والديار المصرية أيضا فيهما من العلماء بكافة العلوم أناس كثيرون الا انهم قليلو العمل فانا ما رأينا أحدا منهم اخترع آلة بديعة أو عملا جديدا أو أي شيء من الاختراعات نافع لابناء الاوطان ومغن لهم عن الاحتياج

الاحتياج للاعمال الاورباوية وربما يكون هذا ناشئا عن اهمال الحكومة لذوي المعارف والفنون مع ان من واجبات الحكومة الالتفات لاولئك القوم ومد يد المساعدة اليهم وحث الامة على طلب العلوم والمعارف بالوسائل الحسنة واكرام ارباب الاختراع والتآليف المفيدة والنظر اليهم بعين القبول ومساعدتهم وانهاض هممهم بما تقتضيه الحال كما هو واقع الآن في معارض اوربا التي تتقاطر اليها عند التئامها ارباب الفنون والصنائع من جميع الاقطار وتعرض فيها اختراعاتهم العظيمة النافعة لدى وزراء وسفراء الممالك مع جماهير عديدة من الناس ايماء وابذالا لمزيد الشهرة والافتخار وربما تحصل البعض على وسامات (نياشين) الافتخار والبعض ممن يكون اختراعهم عظيما ومفيدا للغاية يجعلون له رسما مجسما في ذلك المكان لتبقى شهرته وشهرة اختراعه مدا السنين والايام وهكذا يكافئون كلا على قدر عمله بعدما تعلن باسمه ونوع مخترعه جميع الجرائد لترويج بضاعته وتعظيم شهرته فتزيد بذلك رغبة الناس بالمعارف وتميل انفسهم لطلب الفخر ويوطد امل الانسان باجتناء ثمرات تعبه وكسبه الشهرة العظيمة والصيت الحسن

فمتى انتبهنا نحن ايضا من رقدتنا وتداركنا ما به تقدمنا وثروة بلادنا فان من الواجب على كل وطني لاسيما في مثل هذه الازمان الجديدة ان يبذل جهده لكل ما به نفع الامة والاوطان واتساع دائرة العلوم والعرفان ليتحصل الوطن على اسباب التمدن والتقدم وبحسن حال

الهيئة الاجتماعية بتمتعها بالخيرات الوطنية

ولما كانت عمارية الممالك والممالك تحتاج لاتساع دائرة الفنون والصنائع وادواتها وآلاتها يسر الله في كل زمان أناسا ذوي دراية و براعة تامة يقومون بعبابه احياء العلوم والفنون كما ذكرنا ولم يعدم وطننا من هؤلاء الرجال اناسا قادرين على القيام بمهام الخدمة الوطنية الواجبة على سائر افراد الامة غير ان استنهاض هممهم متوقف على حث الحكومة ومساعدتها وترغيبها الناس بالمعارف لتتقدم بذلك الاوطان وينال اهلها كمال التمدن والعمران

﴿ الباب الثالث في واجبات الاوطان والحرية والعدل ﴾
﴿ اللذين هما سبب العمران وفيه أربعة فصول ﴾

﴿ الفصل الاول في الكلام على الوطن ﴾
﴿ وما في الترحل عنه أو السكن ﴾

قد تقدم معنا في الباب الاول ان الانسان قد خلق مفطورا على الالفة التأنيسية التي تنشأ عنها الاجتماعات البشرية ولما كان لابد لكل هيئة اجتماعية من مكان يجمعها ويضم شملها سمي ذلك المكان بالوطن أي مسقط راس الانسان وبلده الذي ربي فيه وانتمى اليه وهو على ثلاثة أقسام باعتبار النسبة الى خصوص البلد أو القطر شخصيا كان أو نوعيا فيقال فلان دمشقي نسبة الى بلده دمشق الذي تأصل فيه ويقال سوري نسبة الى سورية (بلاد الشام) مجمع الامة

السورية

السورية ويقال أهلى نسبة الى الاهل أو نسبة لكونه من أهالى الوطن وقد اقتضت الطبيعة البشرية ان كل وطنى بعد عن وطنه لا يزال يتشوق اليه و يحن لرؤياه ولو نال فى غيره ما نال من سعادة أو نعيم وترف والحر لا يؤثر على بلاده بلدا ولا يصبر عنه ابدا وفى الحديث حب الوطن من الايمان وقال بعضهم من علامة الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقة والى مسقط راسها مشتاقة وقيل ميلك الى مولدك من كرم محتدك لكن قد يضطر الانسان أحيانا لمفارقة وطنه ومبارحة عطنه اما لضيق المعيشة ووقوف حال الاسباب واما لظلم يناله من قبل الحكام و يضطره لارتياد محل يتصرف فيه و يأمن على ماله ونفسه و ينال حريته له ولعمر الحق ان البلاد التى تكون هكذا غير مأمونة السكنى بها ولا الاقامة فيها من الاضطهادات وعدم أمان الرعية على حالهم ومالهم وضيق أسباب التجارة والاشغال قد يطيب للمرء احيانا مفارقتها وان تكن وطنه العزيز ومسقط رأسه الذى تربى فيه وتغذى بلبانه وهوائه لان الانسان ميال بالطبع لحب الراحة وارتياد الرزق والتوسع ما أمكنه بالمعيشة أبى الذل والاضطهاد

ومع ذلك فالتنقل فى طلب العلم وارتياد الرزق أو العز والشرف حيث وجد محمود عند أغلب الناس والبعض يحث على التجول والتنقل كما فى قول المرحوم والدى من قصيدة طويلة

وان وجدت بدار ذلة عظمت ۞ علیك فاصبر لها أو شئت فارتحل

ان تغتر السير عنها فالتقى بدلا * وان أقمت فمنك الذل لم يزل
اما ترى الماء ان يجري يطب وان * طال المكوث به أدى الى الخلل
والاسد من غابها لو ماتسير لما * نالت فريستها بالسهل والجبل

وقال بعضهم

ان العلا حدثتني وهي صادقة * فيما تحدث ان العز بالنقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى * لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وما قيل في الاقامة والتنقل قل ان يحصى وكل فريق يرجح رأيه على الآخر وكيف ما كان فللوطن حقوق لابد من مراعاتها وحقوق الوطن على الانسان كحقوق الوالدين فكما ان الوالد يعتني بتربية ولده وتهذيبه فانه أيضا أى الولد نشأ في وطنه متمتعا بخيراته منتعشا بهوائه ونماتحت ظله ورواقه يجب عليه والحالة هذه مراعاة الحقوق الوطنيه كما سنبينه في الفصل الآتي ان شاء الله تعالى

﴿ الفصل الثاني في الحقوق الوطنية ﴾

كما ان الوطن هو الذى يجمع الامة تحت راية واحدة وأحكام واحدة واسترعاء ملك واحد ينبغي لها أيضا ان تكون متحدة على كلمة واحدة منقادة لسياسة واحدة حائزة كمال العفة والشجاعة والفضل وصيانة العرض مستعدة لمقاومة أعداء الاوطان وصد هجمات المتغلبين كى تكون حرة بوطنها متمتعة بحقوقها المدنية ويكون كل فرد من أفرادها آمنا على نفسه ماله كاحريه وطنه لا يخشى هضيمة في ذاته ولا يوصل الاذية لغيره حتى يستحق حينئذ ان يعد فردا من أفراد

افراد المدينه التي هي بمنزلة بيت يضم عائلة واحدة بعضهم بالنسبة لبعض كاعضاء الجسم الذي يحتاج كل عضو منه بحركته الى العضو الآخر

كما ينبغي ايضا ان اهالي الوطن يكونون مقبلين على طلب العلوم والمعارف عاقدين الخناصر على جلب كل ما يعود نفعه على الاوطان وما تلبى للفنون والصنائع التي هي سبب تقدم البلاد وثروتها لا يستميلهم الكسل ولا الميل نحو حب الشهوات الجسمانية التي تفضي بالانسان الى حضيض الذل والبوار بل دائما يكونون مهتمين بصوالح بلادهم باجراء الوسائل الآيلة لنجاحهم وتقدم وطنهم كانشاء المدارس العلمية والصناعية وتعميم الشركات التجارية ومد السكك الحديدية الى غير ذلك مما يتوقف عليه المرابح التجرية والسعادة الوطنية فمن نظر الى اوربا من منذ عدة اجيال والى حالتها التي كانت عليها عندما كانت تخبط في ظلام الجهل خبط عشواء وتعرس فيها الآن وفيما آلت اليه حالها من التقدم في المعارف والمعنى ظهر له كيف تأثير الهمم الانسانية في الرجال وكيف تبلغ بالامة الى معارج الفضل والكمال وتجعلها منفردة عن بقية الامم بالفنون والمعارف واكتساب الشهرة والصيت وهكذا شأن الرجال من ابناء الاوطان الذين يبذلون مالهم وارواحهم حبا بفائدة وطنهم وسعادة انفسهم ويقومون بحقوق المصلحة الوطنية التي ينتظم بها حال الهيئة الاجتماعية على ان من اعظم الاسباب التي جعلت اوروبا

تتقدم بالثروة والغنى على الامم تعاضد الناس على الشركات التجارية الوطنية وتعاونهم على المشروعات المهمة النافعة اذ من المستحيل ان واحدا ذا يسار او اثنين ولو مهما كانا غنيين ان يستطيعا انشاء سكة حديدية او بنكا (محلا للقرض) او معملا للتشغيل ونحو ذلك من المنافع العميمة ما لم يتعاضد على ذلك المشروع عدة اناس يكونون مشتركين بدفع ما يحتاج اليها الحال من النقود كل منهم على حسب استعداده وعناه لهم حينئذ تسهيل الاشغال وينال الجميع جزيل الفائدة والارباح

ويستنتج من ذلك ما لقوة الاجتماع من القدرة على الاعمال العادية وان كل وطن يتحد اهله على طلب المنفعة والتقدم تراهم سائدين على من عداهم كثيري الثروة متمتعين بالخيرات الوطنية حائزين تمام الحرية والامنية بخلاف الامة التي تكون متعددة الافكار والآراء متفرقة الجماعات والاحزاب فانها لاتزال في تشاحن وتحاسد وربما تجلب سوء العاقبة الى الاوطان وهي محرومة من اسباب التقدم غير مستحوذة على الحرية الوطنية بعيدة عن نوال الحقوق العمومية لذلك ينبغي لابناء الاوطان ملازمة اسباب سعادتهم وتقدمهم واتحادهم على دفع كل ما من شأنه ان يضر بالاوطان ويحط بقدر الامة ويجعلها تتأخر في ميادين الفضل والعرفان وذلك باستحضار جميع ما يلزم لاهل العمران من الادوات اللازمة لتحسين الاحوال الحسية والمعنوية والاستعداد بسائر المهمات

المهمات الحربية برية كانت أو بحرية معا المسابقة في الاوطان من
هجمات الاعداء وصد المطامع المتغلبين كما لزم تجريدا فرادا لجمعية
من امتيازاتهم المعنوية لدى ممانعة الاخطار المزمعة ان تلم بالاوطان اذ
عندها يتساوى بالمصلحة ابناء الوطن كبيرهم والصغير وحقيرهم
والامير فلا ينبغي لهم حينئذ النظر الى امتيازاتهم المعنوية والاهمال
بالمصلحة الوطنية بل يكونون متحدين على كلمة واحدة وتحت راية
واحدة و يكون كل فرد من أفرادها منزه النفس صادق الوطنية
لا يستميله حب الشهوات لما به ضرر بلاده وسوء معاده و ينبغي
للحكومة استئصال ذوى الاعراض والغايات الذين يظهر منهم أدنى
زال من شأنه ان يخل براحة الاوطان كما ينبغي لها أيضا مساعدة
الرعية والتحفظ على حقوقها المدنية ومنحها كمال الحرية المؤسسة
على العدل وحسن السياسة

﴿ الفصل الثالث في الحرية العمومية ﴾

قسم بعضهم الحرية الى معنيين الاول منها هو الحرية الشخصية وهي
اطلاق تصرف الانسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه
وماله ومساواته لابناء جنسه لدى الحكم بحيث ان الانسان لا يخشى
هضيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشئ لا تقتضيه
قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس والمعنى الثاني الحرية السياسية
وهي تطلب الرعايا التداخل في السياسيات الملكية والمباحثة في
ما هو الاصلح للملكة بواسطة نواب الامة

وقسمها بعضهم الى خمسة أقسام القسم الاول الحرية الطبيعية وهي ماخلقت مع الانسان وجبل عليها كالاكل والشرب والمشي مثلا مما لا طاقة للقوة البشرية على دفعه ولا غنى لسائر الانسان عنه مما يكون به المعاشه وغذاء جسمه وما يكون به قوام حياته لا ما يضره كالتخم والاقدام على شرب المسمات فان الانسان قادر على دفع ذلك بدون ان يعد دافعه ظالما

الثاني الحرية السلوكية وهي حسن سلوك الانسان واتباعه سبل العدالة ومكارم الاخلاق اللازمة على كل فرد من أفراد الجمعية لا كما يتوهمه البعض من انه اذا اتى شيئا أو أمرا معيبا او سئل عن ذلك أجاب انني حر ولي ان افعل ما شئت بحريتي فلعمر الحق انه لرقيق هوى نفسه والحر من يتقي بمحاسن أفعاله ومكارم أخلاقه سهام المذمة والملام ليكون أمينا على نفسه مشهورا بحسن معاملته لغيره

الثالث هي الحرية الدينية وهي اتباع الانسان آمنا ايا شاء من المذاهب الاربعة والعقائد الدينية بشرط ان لا يكون خارجا عن الاصول الشرعية

الرابع الحرية السياسية وهي حرية أرباب الادارات الملكية بوضعهم قوانين على مقتضى مذاهب بلادهم واجراء ما تحسن به الرابطة الاجتماعية اذان ملوك ووزراء الممالك شهر ح لهم باجراء الروابط السياسية والاحكام القانونية المؤسسة على العدل وحسن السياسة

السياسة

الخامس الحرية المدنية وهي عبارة عن اتحاد وتواطئ جميع الهيئة الاجتماعية كأهالي مملكة واحدة على ضمانة حقوق بعضهم لبعض وارتباطهم بقوانين مسنونة وأحكام لا يتعداها أحد منهم بشرط ان كل فرد من أفراد الامة يكون مطلق التصرف في ذاته وأشغاله التجارية مصرحا له بالاقامة أو بغيرها بدون اكراه مكره أو اجبار مجبر آمنا على نفسه وماله مباحا له التصرف فيما يملكه بجريان جميع التصرفات الشرعية مالكا له بقيود وحجج مرعية فبهذا تكون الحكومة مريحة كل فرد من أفراد الامة ضامنة حفظ حقوقه المدنية مادام سالكا مع اخوانه سبيل الخير متمتعا بحقوق وطنه على وجه يضمن له التمتع به وحسن المقام

وعلى هذا فان الحرية المؤسسة على العدل وحسن السياسة تكون كافلة لجميع مصالح الامة مسببة سعادة المملكة والبلاد داعية لحب الوطن جامعة للرعية على التعاون والتعاضد لما به خير أوطانهم وأنفسهم لذلك لا ينبغي التضييق على أحد أفراد الجمعية ومنعه من التمتع بحقوقه الوطنية وتوقيعه عما يجوزله عمله بغير وجه قانوني فان كل عضو من أعضاء الامة مباح له الاتيان بما يجوزله شرعا غير مكلف بما لا تبيحه له القوانين المحلية والاحكام الشرعية وبالجملة فعلى الحكام اجراء تمام العدالة والانصاف ومزج اللين بنوع من الشدة ليكونوا أمناء على المملكة مريحا للرعية بعيدا عن نفرتهم جالبا بالسعادة

البلاد كما ينبغى أيضا لكل فرد من أفراد الامة طاعة حاكمه واكرامه وعدم خروجه عن دائرة قوانين بلاده مع اجراء جميع الوسائل الراجعة بالنفع على وطنه فان الانسان مكلف بكل ما من شأنه ان يدفع الضرر عن الاوطان ويجلب الخير والعائدة لها فاذا كلف الحاكم الاهالى على دفع العدو عن البلاد ومقاومة كل من يريد اسلاب حريتها لا يعد هذا من الحاكم تكليفا فالوطنى مجبور على المحاماة عن حقوقه الوطنية لما جبل عليه الانسان من الانفة والعزة واباء الحقارة و لذل

ثم ان من أعظم منافع الحرية حرية الاعمال الاربعة التجارة والصناعة والفلاحة والاعمال الفكرية والمدنية التابعة للحرية الشخصية لانها السبب الاكبر فى تقدم البلاد وسعادتها وبها تكون تربية الهمم الانسانية فقد ثبت ان كل مملكة حازت تمام هذه الحرية أصبحت ثروتها عظيمة ومنافعها عميمة فالترخيص بها يجلب المنافع العمومية و يكسب البلاد رونق المجد والترقى الى الدرجات العلية فكل عاقل عارف بمنافع هذه الحرية يرى ان أصعب ما يكون تضييق نطاقها وعدم اكتراث الحكومة بها وقد يكون فى بعض الممالك التضييق بها وربما كان ذلك لكون الحاكم يرى عدم أهلية الرعية لها منتظرا لذلك تمكن التربية منهم واستكمالها فيهم واصلاح حالهم ليبيح لهم التصرف بالعمليات الواسعة ويرخص لهم باتساع الدوائر الزراعية

والصناعية

والصناعية ويبين لهم أسباب التمدن والتقدم لتستنير أبصارهم وترشد عقولهم

وينبغي ان تكون تلك الحرية مؤسسة على العدل وحسن نظام الامة ليكون المحترف آمنا على نفسه وماله من اغتصاب نتائج اتعابه وتعطيله عن أسباب معيشته لاغراض عدوانية فما ينفع الناس ان تكون أرضهم خصبة يانعة الثمار اذا كانوا لا يتحققون الحصول على ثمرات أتعابهم ونتائج أرضهم خوفا من هضمهم حقوق تعبهم ومن الذي يقدم حينئذ على زراعتها مع ضعف أمله اما لما ذكرنا واما لتعذر جلب أرزاقها من بلد الى آخر لما يطرأ عليها من الفساد في الطريق أو لكون أجرتها أضعاف ثمنها كما هو واقع الآن في ديارنا السورية فانك اذا أخذت مدا (هو كيل مشهور) من القمح مثلا من حوران هي بلاد خصبة في جنوب دمشق فعظمه يكون أحيانا باسبعة غروش واذا أردت ارساله من حوران لاي جهة كانت تدفع أجرة مشاله ونقله كما دفعت في ثمنه أو أكثر لذلك من أهم ما حثته الدول الاوروباوية من كمال الحرية تسهيل المعاملات التجارية باختراعهم السكك الحديدية وتعاضد الشركات الاهلية والاقبال على تعلم جميع الفنون العلمية والصناعية وبالجملة فان الحرية نافعة في كل الوجوه وبها يحصل تمام القدرة على الادارة المتجرية واذا فقد الناس الحرية والامنية يضطرون بالطبع الى اخفاء مجتنيات بلادهم فتتعذر الحركة التي ينشأ عنها تعطيل الاشغال ويستولي على الاهالي الوهن والفقر ما لم

تمنح الرعية حريتها بالاشغال وتساعدها الحكومة على أسباب التسهيل وانتشار المعارف وتقوية الشركات اذلا يخفى مابقوة الاجتماع من القدرة على الاعمال العادية هذا وقد بقى علينا ان نذكر ما لحرية المطابع من الفوائد الجليلة والاهمية العظيمة فانها هى التى يسرت انتشار العلوم فى الاقطار وجاءت للعالم بفوائد لاتحصى ومنافع لاتستقصى سيما حرية الجرائد (صحف الاخبار) ذات الفوائد الجمة فانها من أعظم الاسباب المهذبة للعقول والمنورة للابصار لكن بشرط ان تكون مقيدة بقوانين لاتتعداها وخطط لاتتخطاها لان اعطاء الجرائد الحرية المطلقة قد يخل أحيانا بالراحة العمومية بما تنشره من المقالات على مقتضى الاغراض الشخصية التى تستدعى دقة النظر وتهيج أفكار العامة فلذلك ينبغى ان تكون حريتهم متوسطة لاتفريط ولاافراط حتى تتم بالفائدة مع تحاشى الضرر كنشر مايراه البعض ممن لايتوصلون الى الادارات الملكية من الآراء المستحسنة السياسية ودرج المقالات الادبية والنصائح والوقائع اليومية والمدافعة عن الحقوق الجنسية والوطنية والحوادث التاريخية التى تنور أبصار الناس ويستنتج منها معرفة الاخبار اليومية ولا اقل من ان يحصل منها الانسان على ما يهمه من معرفة حوادث بلاده ووطنه هذا فضلا لاعما لها من الفائدة بالاشغال التجارية اذ ربما يمكث صنف البضاعة بائرا عند أحد التجار جملة أيام وشهور فيعلن بواسطة الجرائد عن محل وجوده

ونوع

ونوع بضاعته وحسن أقمشته فيشهر محله في جميع الجهات وتروج
بتلك الواسطة بضاعته ويحسن حاله وهكذا جميع التجار على اختلاف
أشغالهم كما هو جار عند الافرنج الآن فتراهم يزينون أعمدة الجرائد
بالنقوش والرسوم المزخرفة مبينين بذلك أشكال بضاعتهم
مرغبين الناس بحسن أقمشتهم فتروج تجارتهم وتنتهي الى الأماكن
البعيدة شهرتهم وما ذلك الا بواسطة الجرائد كما تقدم ومنافعها من
هذا القبيل لا تنكر واذا أردنا احصاء ما ينجم عنها من الفوائد يطول
الشرح لكن لسوء البخت ان ديارنا السورية محرومة من هذا
الامتياز العظيم فانها مع احتياجها في مثل هذه الأزمان الحديدة
الى الجرائد الوطنية فهي بالنسبة لغيرها قليلة حد الا تكاد تزيد
عن خمس أو ست جرائد منها واحدة وهي الرسمية تطبع في دمشق
والباقي في بيروت وهي في الحقيقة عديمة الجدوى لانه فضلا عن
كون صدورها اسبوعيا فهم لا يقدرون على نشر المقالات السياسية
الا ما ندر حتى ولا الحوادث المهمة الوطنية والوقائع اليومية التي
يستفيد منها الانسان تنوير بصيرته ووقوفه على حوادث وطنه
وأخبار بلاده وما ذلك الا لتشديد الحكومة على أرباب الجرائد
تشديدا يعسر محله مع ان من الواجب على الحكومة اجراء جميع
الوسائل المؤدية لترقي الاهالي وتقدم البلاد لتشترك معهم بالثروة
والغنى وتحبهم حرية وطنهم وتجعل للجرائد نظاما متوسطا
لا يتعدونه كما انه ينبغي للجرائد الوطنية سلوك سبل الاعتدال

وعدم الخروج عن دائرة الآداب الانسانية وتحاشي القدح والمقالات التي تسود وجوه الصحف بظلمات الاغراض الشخصية الامانة فائدة العموم وداعية التعاضد والاتحاد فان الجرائد هي الواسطة لتهذيب أفكار الامة وارشادهم لمصالح الوطنية ليس لفساد أفكارهم وضرر وطنهم انتهى

هذا ولما كان موضوع هذا الكتاب هو بيان أسباب التمدن والعمران فقد أحببت ان أجعل خاتمة هذه الفصول فصلا مختصرا في العدل الذى هو السبب الاول لتقدم البلاد وتمدن العباد وان كنت قدمت ذلك في فصل الحرية المتقدم غير مرة لكن زيادة للفائدة وبيانا للمقصود

﴿ الفصل الرابع في ذكر العدل وانه سبب العمران ﴾

العدل عبارة عن الاستقامة على طريق الحق وان ينتصف الانسان لنفسه ولغيره وقد جعله بعض الحكماء قاعدة جميع الفضائل كالكرم والمروءة والعفة والشجاعة وحب الوطن وصفاء القلب ونحو ذلك من الفضائل التي هي من نتائج العدل والعدل أساس الملك وسبب العمران ووسيلة لتقدم الاوطان فان الحاكم العادل اذا كان مشهورا بالعدل وحسن السياسة يستميل اليه قلوب رعاياه وتطمئن به البلاد من الجور والاستبداد فيصبح الناس متحدين على كلمة واحدة آمنين في أوطانهم خاضعين لاوامر حاكمهم غير منفرين من سياسته بل هم في راحة وسكون من تعدى الايدى والظلام فتنشأ

عندهم

عندهم الامنيه التي يتسبب عنها عمران الممالك والممالك وتقدم التجارات وحسن الاحوال بخلاف ما اذا كان الحاكم جائرا على رعيته لا يحسن سياسة مملكته فتختلف عليه الآراء وتنفر منه الناس كما وتمتد أيدي عماله للظلم والتعدي على الحقوق الانسانية اذ لا رادع يردعهم عن الظلم وحب الاغراض النفسانية فيترتب على ذلك خراب البلاد وتنفر العباد ويختل نظام الملك وتقع الناس في أشد الضنك وأما اذا كان الملك عادلا في رعيته سالكا سبيل الشرع في سياسته لا يسلم زمام الاحكام الا لذوي الكفاية والدراية المنزهين عن الغش وحب الاغراض الذاتيه الذين ينظرون لمصلحة بلادهم بعين الصداقة والحكمة والتدبير أمن على البلاد من الخراب والدولة من الانقلاب

قيل انه لما دخل الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وجده مستلقيا على قفاه بالمسجد متوسدا الحصى ودرته بين يديه فقال له عدلت فأمنت فنمت وكتب الى عمر بن العزيز عامله بحمص ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر بن عبد العزيز حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام وقيل من جملة عدل الاكاسرة ان كسرى أظهر يوما من أيام مملكته انه مريض وأنفذ ثقاته وأمناءه ليطوفوا أقطار مملكته واكناف ولايته وان يطلبوا له لبنة عتيقة من خربة ليتداوى بها وذكر أن الاطباء وصفوها له فمضوا وطافوا جميع مملكته وعادوا فقالوا ما رأينا في جميع المملكة

مكانا خربا كى يأخذ منه لبنة عتيقة فقال لهم الملك انما أردت ان أختبر
اياتى لاعلم هل بقى فى المملكة موضع خراب لاعمره فالآن لم يبق
مكان الاعامر وقد تمت أمور المملكة وانتظمت الاحوال ووصلت
العمارة الى درجات الكمال فانظر الى هذا العدل الذى لم يدع
فى البلاد خربة يؤتى منها الملك بلبنة عتيقة فهذا هو العمران ومن
عدل نور الدين الشهيد ماقاله ابن الاثير انه بلغ عدل نور الدين الشهيد
وهو أول من بنى دار العدل وسببه انه لما أقام فى دمشق بامرائه وفيهم
أسد الدين شيركوه تعدى كل منهم على من جاوره فكثرت الشكاوى
الى القاضى كمال الدين الشهرزورى فانصف بعضهم من بعض ولم
يقدر على الانصاف من شيركوه لانه كان أكبر الامراء فبلغ ذلك نور
الدين الشهيد فامر ببناء دار العدل فلما سمع شيركوه قال لنوابه
مابنى نور الدين هذه الدار الا بسببى والا فمن يمتنع عن القاضى كمال
الدين والله لان أحضرت الى دار العدل بسبب أحد منكم لاصلبنه
فامضوا الى كل من بينكم وبينه معاملة وأرضوه ولو اتى على جميع
مابيدى قال وظلم رجل بعد موت نور الدين الشهيد فشق ثوبه
واستغاث يانور الدين فاتصل خبره بالسلطان صلاح الدين بن يوسف
ابن أيوب فازال ظلامته فبكى الرجل أشد من الاول فسئل عن ذلك
فقال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته و يحق لعمر الحق
لسلطان عادل ان تبكى لفقده العباد فان العدل حياة الامة وسبب
عمران البلاد انتهى

هذا

هذا ما أحببت ايراده فى هذا الباب وفيه لاولى البصيرة كفايه وقد جعلت الخاتمة فى ذكر نبذة تتعلق بالتمدن الاسلامى والتمدن الاروباى على حسب الامكان لكى تتم الفائدة المطلوبة والغاية المرغوبة

﴿ ذكر نبذة تتعلق بالتمدن الاسلامى ﴾

من تأمل فى سريان قوة الامة الاسلامية فى مبدء ظهور الاسلام وامتداد عنصرها فى الاقطار وتقدم سلطتها وانتشار شريعتها فى غالب الامصار فى مدة لا تزيد عن الثلاثين الى الثمانين سنة عن يد طائفة من العرب قليلة قد لبت دعوة نبيها عليه الصلاة والسلام حين دعاها للحق فانتضت امامه من غمد الحزم والعزم والايمان سيفا ما قوى على اغماده أحد بل كافة امم العالم أخذتها الحيرة والاندهال وتحقق لديه ما لتلك الشريعة من الاسرار الالهية والسياسة الشرعية التى جعلت العالم ينقاد لامر بعث الله به نبيه بالحق للناس ألا وهو الاقرار بوحدانية الله تعالى واتباع سنن القوانين الالهية المبنية على العدل فادى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه للناس وبث فى الوجود أنوار العدالة والاهتداء ثم قام بعد نبيهم لاتمام تلك الدعوة الخلفاء الراشدون وسلكوا من السبل ما به قوام وانتشار هذا الدين وأحسنوا السياسة مع الخلق ونهجوا أقوم السبل التى تؤدى بالانسان الى الحق وبتوافى الوجود روح العدل والايمان فانتعشت أرواح العباد ودانت لهم جميع البلاد ثم نبع من والاهم

من خلفاء الدول الاسلامية منهج سلفائهم باتباع الخطط المؤدية لتقدم هذه الامة وامتداد شريعتها في الاقطار حتى أتاح الله لهم من الفتوحات العظيمة والتقدم ما كان أشبه بسيل طمى على آسيا فعم العرب والعجم وتجاوز حدود تركستان الى الهند والصين ودخل أراضي الروم الاسيوية مشرفا على أوربا واتخذ له مجرى آخر فانصب نحو فلسطين ثم الى مصر وأفريقية واجتاز البحر الى الاندلس حتى بلغ ممالك المغرب الاوربا وية وهذا كله مما يتعذر على جميع الدول الاوربا وية تملكه حين ذاك فما لم تكن عناية من الله سبحانه وتعالى أرادت بها انتشار هذا الدين ليكون سبب انتظام العالم وانتشالهم من ورطات التهور والجهل فانه بينما كانت أوربا وقتئذ تخبط في ظلمات الجهل خبط عشواء كان التمدن الاسلامي آخذا بالانتشار شيأ فشيأ في الارض والامة العربية منتضية سيف العدل لاستئصال جراثيم الجهالة من عنصر الوجود حتى تسنى لها في أقل من قليل تمدين أكثر الامم وارشادهم لطرق الصواب وكان تخت الخلافة الاسلامية حينئذ ذاك في دمشق الشام (أعني دولة الامويين) ثم الانبار ثم انتقل الى بغداد (أعني دولة العباسيين) وكانت عواصم المسلمين وقتئذ تزهو بالعلماء وأرباب الفنون والصنائع كما كانت بغداد محطا لرحال التجارات الشرقية والغربية تلوح في سمائها نجوم العلماء وتتباهي بتقدمها على جميع البلاد

قال المؤرخون كانت بغداد تشتمل على ثلاثين ألفا من القصور وثمانية

وثمانية جسور رخامية على دجلة واثنى عشر ألف طاحون بجانبيه وثمانمائة مسجد وثلاثمائة جامع وثمانمائة مدرسة واثنى عشر ألف مكتب وثمانية عشر ألف حمام وبذلك وكانت بما انها كرسى الخلافة مركز التجارة بين المشرق والمغرب فكان فيها اكثر من ألف خان للقوافل واربعمائة سوق للاقمشة وهذا دليل على ما كان لها من سعة دائرة التجارة والخيرات

قالوا ولم يوجد مدينة كبغداد لافى العلوم ولا فى الصنائع ونحوها فى مدة اجيالها الحسنة فلا الكوفة ولا المدينة ولا الشام قاعدة الخلافة الاموية ولا القاهرة تخت العلويين ولا سمرقند ولا دلهى ولا قرطبة ولا القسطنطينية مع عظم بنائها وشهرتها

وفى الحقيقة كانت بغداد خصوصا وسائر الممالك الاسلامية عموما فى زمن الدولة العباسية تتمايل كالعرائس بسعة دائرة المعارف والعلوم فان الله لما صرف الملك عن الامويين الى هذه الدولة الهاشمية ثابت الهمم من غفلتها وثارت الفطن من رقدتها وكان أول من عنى منهم بالعلوم أباجعفر المنصور قالوا وكان مع براعته بالفقه كلفا بعلم الفلسفة وخاصة فى علم النجوم ثم تلاه الرشيد وهو باعتبار بدء الخلافة من ابراهيم الامام سادسهم وباعتبارها من السفاح خامسهم وقام هذا الخليفة أيضا بخدمة العلوم والدين أتم قيام وهو الذى اهدى بزمانه لشارلمان ملك فرانسا الساعة الدقاقة التى عدت فى وقتها من فضائل العرب كما سيأتى تفصيل وصفها ثم لما

أفضت الخلافة لابنه المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور وأقبل على طلب العلوم وسام ملوك الروم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فارسلوا له ما استحضرهم منها وكلف لترجمتها مهرة العلماء فترجمت له على غاية ما أمكن وجعل يحث الناس على قراءتها ويرغبهم فيها وكان لايزال مجالسا للعلماء آنسا بالحكماء حتى لمعت شمس الخلافة فى زمانه أقصى درجة الصعود ونال العالم الاسلامى غاية السود والمجد

وكان المأمون يحب العلماء من كل نوع ويكرمهم لاسيما علماء الافلاك ومن المنجمين فى أيامه كان حبش الحاسب المروزى الاصل البغدادى الدار وله ثلاثة أزياج أولها المؤلف على مذهب السند هند والثانى الممتحن وهو اشهرها ألفه بعد ان رجع الى معاناة الرصد وأوجه الامتحان فى زمانه والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه وله خلافها وبلغ من العمر مائة سنة ومنهم أحمد بن كثير الفرغانى صاحب المدخل الى علم الافلاك يحتوى على جوامع كتب بطليموس بأعذب لفظ وابين عبارة ومنهم عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير القوم فى فن النجوم ومنهم محمد بن موسى الخوارزمى ومنهم ماشاء الله اليهودى كان فى زمن المنصور وعاش الى ايام المأمون ومنهم يحيى بن ابى منصور رجل فاضل كبير القدر مكين المكان ولما عزم المأمون على رصد الكواكب تقدم اليه والى جماعة من العلماء فاصلحوا آلاته بشماسية بغداد وجبل قاسيون بدمشق

ومن

ومن الحكماء يوحنا البطريق الترجمان وولي المأمون أمينا على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ألكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب

ومن الاطباء سهل بن شابور يعرف بالكوسج كان بالاهواز في لسانه خوزية وتقدم بالطب في أيام المأمون وكان اذا اجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجبورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة لا في العلاج

وكان المأمون قد قرأ في كتب الاوائل ان دور الارض يكون أربعة وعشرين الف ميل فاراد تحقيق ذلك فامر بني موسى الثلاث المشهورين وهم محمد واحمد والحسين أولاد موسى بن شاكر وكانوا يعلمون جيدا علم الهندسة والحيل والموسيقى بأن يحققوا ذلك ويحرروه فسألوا عن الارض المتساوية فاخبروا بصحراء سنجار وحققوا ذلك بارتفاع القطب الشمالي بعد عملية طويلة لا محل لذكرها هنا

وكان المأمون أكرم الخلفاء وأحبهم للعلم والعلماء وأقام بزمانه في بغداد مرصدا فلكيا ما زال الى زمن هلاكو فدرس مع مادرس منها

وهكذا نالت هذه الامة في زمن هذا الملك وغيره من الخلفاء ما جعلها ان تفوق العالم بأسره بتقدمها في العلوم والمعارف الى درجة ما أدركتها أمة قط فان همم الخلفاء الاسلامية كانت موجهة نحو

تقدم هذه الامة وترقيها بكل ما أمكن من الوسائل اللازمة والاسباب فكم منحوا من الجوائز للمترجمين والادباء وقربوا منهم من الحكماء والعلماء وكان اذا امتدح أحدهم بقصيدة شعر أجاز منشئها بكذا وكذا دينارا واذا ألف أحد كتابا واهداه لخزائنهم يكافئونه اما بوظيفة من وظائف الديوان الخاص ويدنونه منهم ويقربونه واما أن يقطعوه من الضياع ما يكفيه ويكفي ذريته من بعده وما ذلك الا لترغيب الامة في العلوم وحثها على طلب المجد حتى تقاطرت نحو أبوابهم العلماء واستنارت العقول وأصبح كل يتسابق الى التأليف والتصنيف وما مضى على ذلك الاجيلان او ثلاثة حتى أنبثت بواسطة هذه الامة روح العلوم والمعارف فى الاقطار ونال ملوكها بسياستهم من الشهرة ما طبق الآفاق وأصبحت الممالك الاسلامية كالشموس بالاشراق وقد شهد بتقدمها بالفضل وعظم سطوتها اغالب مؤرخي الافرنج وملوكها أيضا

ومن ذلك ما نقله صاحب كشف المخبا عن فنون أوروبا عن فلتير أحد المؤرخين المشهورين قال وكانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود والتزم البابا يوحنا الثامن ان يدفع للمسلمين فى كل سنة خمسة وعشرين ألف رطل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧ وقد دخلوا ايطاليا ونهبوا كنيسة مار بطرس وفتكوا بالجيوش الفرنساويه الذين كانوا ساروا الى رومية لاجارة أهلها تحت راية القائد لوتاريوس وفى القرن الثانى عشر كان المسلمون مستولين فى اسبانيا على أحسن البلدان

البلدان منها اورتغال ومرسية والاندلس والنسية وغرناطة
وطرطوشة وامتد ملكهم حتى الى وراء جبال قسطيل وسيرقوسه
أما دار الخلفاء (بنى الامويين) فكانت فى قرطبة وبنوا بها المسجد
العظيم المشهور وقبوه مرفوعة على ثلاثمائة وخمسة وستين عمودا وهو
من مرمر غريب الصنعة بديع الاتقان ولم يزل معروفا الى الآن باسم
مسك (أى مسجد) مع انه حول كنيسة وكانت الصنائع والفروسية
والابهة فى عهدهم فى مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرح واللهو
أما علم المساحة والفلك والهندسة والكيميا والطب فلم يكن الا فى
قرطبة دون غيرها من سائر المدن (وأظنه أشار بذلك الى مدن
الاندلس) حتى ان صانكو ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى ان
يسافر اليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورا فى عصره فلما
استدعى به الملك أجابه قائلا ان كان للملك حاجة الى فليقدم على. وقال
بعض المؤلفين ان المسلمين ملكوا من البلاد فى مدة ثمانين سنة
بعد الهجرة مالم يملكه الرومانيون فى ثمانمائة سنة وقال أيضا
فى كشف المخبأة لا عن (فلتير) المذكور لان أول ساعة دقاقة
عرفت فى فرنسا هى الساعة التى أهداها هرون الرشيد الى شارلمان
ملك فرانسا وقال قال فى أبجدية الاوقات علم الحساب انما أخذ عن
العرب فى اسبانيا ثم شهر فى انكلترا سنة ١٢٥٣ وقال صاحب معجم
الجغرافيا ان البابا سلوستروس الثانى وكان يعرف أولا باسم جربرت
سار الى الاندلس وأخذ العلم عن العرب وكانت ولادته فى سنة ٩٣٠

وانتخب بابا فى سنة ٩٩٩ وكان ماهرا فى علم المساحة وجر الاثقال والفلك وهو الذى نشر رقم الحساب العربى فى أوربا وأول من عمل ساعة ذات رقاص

وحيث جرى ذكر الساعة فلا بد من استيفاء الكلام عليها قال مؤلف المخترعات العجيبة ذكر المؤرخون من الفرنسيس أن أول ساعة عرفت فى بلادهم هى الساعة التى أهداها الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ملك فرانسا وذلك فى سنة ٨٠٧ وكانت بدعا فى ذلك العصر حتى انها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا والظاهر انها كانت من الآلات التى يديرها الماء المنحدر وكان لها اثنا عشر بابا صغيرا تنقسم بها الساعات فكلما مضت ساعة انفتح باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الابواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيل وتدور على صفحة الساعة انتهى ملخصا ما ذكره فى كشف المخبا

وقد ناسب هنا ان نذكر ما نقله عن مؤرخى الافرنج أيضا صاحب الشرف والمجد الوزير الاعظم خير الدين باشا التونسى فى كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك فقال

ففى تاريخ دروى وزير المعارف العمومية الآن ما معناه بينما أهل أوربا تائهون فى دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة

وسمرقند

وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت فى الامم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية يأتى بيانها وفيما يقول كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية فى اليمن والقرشية فى الحجاز وبالاخيرة جاء القرآن (ولا يخفى عليك ان الذى يقابل الحميرية هو المضرية وان وقع الاجماع فى القراءة على خصوص القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة فى اللسان الا بدخول الامم فى الاسلام وتطاول السنين وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال ما لا يخفى على متاونها لا سيما فى الاشياء التى بها قوام المعيشة فى البادية أولتكرر رؤيتهم لها أو تكثر حاجتهم اليها فقد يكون للشئ الواحد عندهم عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية اذ يقال ان للعسل عندهم ثمانين اسما وللثعبان مائتين وللاسد خمسمائه وللجمل ألفا وكذا السيف وللداهية أربعة آلاف اسم ولا جرم أن استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعى حافظة قوية وللعرب من قوة الحافظة وحدة الفكر ما لا يسع أحدا انكاره فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوما للخليفة الوليد انه ينشد له فى الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين الى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد الى ان قال ولم يكن للعرب فى أول

الامر الا الآلات الآداب ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالامم الذين سبقوهم فى الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فاخذوا من اليونان تآليف ارسطو وشرحوها بامعان نظر لكن من سوء البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الاصلية وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام فهم ترجموا المترجمة فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربى حفيد ابن رشد فى أوربا فى القرون المتوسطة وجدنا من التحريف أكثر مما وقع فيها أولا وأما العلوم الرياضية فقد صادف العرب المرمى فيها والفضل فى ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية وفى أوائل القرن التاسع المسيحى أمر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد ان يقيسا مساوفة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار وبرناها ليثبت بذلك تكوير الارض بالمشاهدة وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالى عن طرف الخط المقيس وقد شرح العرب كتاب اقليدوس وهذبوا زيج بطليموس وحرروا حساب تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق واخترعوا للتحريرات آلات جديدة الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب وأما ما ينسب للعرب من اختراع الجبر والمقابلة والارقام الحسابية المسماة عندنا بالارقام العربية فلم يثبت بل انما تعلموا

ذلك

ذلك مع فلسفة أرسطو بالتلقى من غيرهم وهى من العلوم التى وجدوها فى اسكندرية ويمكن انهم نقلوا الينا على ذلك الوجه البوصلة (أى بيت الابرة ويقال له الحك) والبارود الذى تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أوربا بعزية اختراع الكاغد من القماش وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده وقد اشتهرت العرب أيضا بمعرفة الطب الذى كانوا علموه من كتب اليونان ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جاليوس شاهدة بما ذكر ومن ولاسفتهم عدة أشخاص صاروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشهورين مثل أبى على بن سينا المتوفى سنة ستة وعشرين وأربعمائة هجرية وابن رشد المذكور وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرعون معالجتهم اياهم كما يحكى ان بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى ان تكون معالجته فى قرطبة وحصل من امف الخليفة على الاذن فى ان يذهب ويداويه المسلمون ومن ماثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وأدوية كثيرة ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا وسبب تقدمهم فيها ان اتساع فتوحاتهم ورغبتهم فى الاسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم انتخب لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التى لم يصل اليها أهل أوربا أو نسوها بعدما كانت معروفة لهم ومن مشاهيرهم فى هذا الفن أبو الفداء والمسعودى والادريسى وهذا الاخير هو الذى استدعاه روجير الثانى صقلية والف

عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق وأما علم التاريخ فمن تآليفهم فيه تاريخا المسعودى وأبى الفداء المذكورين وتاريخ المقريزى غير انها تواريخ مختصة بابناء جنسهم وقل ان يوجد بها الفكر بذلك بمعنى انهم لا يسبرون منقولاتهم بمعيار العقل كما أشار الى ذلك ابن خلدون ولا يخرجون عن دائرة الوقائع المجردة ولا سبب لذلك الا ما حكاه (سديو) فى تاريخه الآتى ذكره من ان وجود التسلط من الملوك فى بلاد المشرق هو الذى كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع وبيان أسبابها للخطر الذى كان يلحقهم فى حكاية الحق وأما صناعة (الارشتكتور) أى هندسة البناء فى اصطناع الهيآت فلم يشتغل العرب منها الا بما يرجع الى اتمام الابنية حيث ان شريعتهم تمنع التصوير على ان البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالاصل عندهم فى الاقواس المرفوعة على الاسطوانات ان تكون أكبر من نصف دائرة وهذا الشكل أخذوه من أبنية البزنتيين وهم أمة من اليونان واعتاض العرب عن الصور الذهنية والمجسدة التزين بالنقش المسمى عندهم بنقش حديدة وكان فى الاصل رسوما لها مدلولات ثم مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التى يمكن ان يصور منها أشكال جيدة طريفة وكثيرا ما تعجب من اتقان تلك الحروف حين تراها على الزرابى والاقمشة المشرقية ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات والتزويق بالذهب والاحجار الثمينة كالمرمر التى كانوا جلبوها من المشرق ومن مقاطيع اسبانيا

الجنوبية

الجنوبية ومن أشهر ابنيتهم الجامع العظيم الذى بناه عبد الرحمن الاول في قرطبة وكان به ألف وثلاثة وتسعون اسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذى لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطئ الوادى الكبير وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزئبق ثم ينعكس في قصعة من المرمر ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آن واحد قصر وحصن وبها عدة أمور تصلح ان تكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصا وسطها المسمى ببطحاء الاسود وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها في سائر الاوقات ثم لما امتدت سلطتهم من البرينى وهى جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال همالاى التى باقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الارض وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم مالهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم في ذلك السائر بها الى الآن أهل بلنسية روضة اسبانيا صالحة ان نجعلها اسوة نقتدى بها في فلاحتنا المرانساوية وأما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التى كانت تحت سلطانهم باسبانيا وحريريات غرناطة والجوخ الاخضر والازرق بمدينة كونسة والسروج والجروح والجلود بقرطبة وكان أهل أوربا يشترون هذه المهمات باعلى ثمن ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين

لديانتهم وبالجملة فقد بلغت اسبانيا من العمران الى هذه الشهرة
في القرون الاولى من مدة الخلفاء حيث كانت العرب عنها اسكن من
المشرق وقد تزايد عدد سكانها الى ان صار بمدينة قرطبة وحدها
مائتا ألف دار وستمائة جامع وخمسون مارستانا وثمانون مكتبا
عموميا وتسعمائة حمام وعليون نفسا فهنالك برنامجا اجماليا للتمدن
الذي نشره العرب من شاطئ تاج وهو واد كبير باسبانيا الى وادي
هندوس بالهند تمدنا يكاد يخطف نوره الابصار ولكنه لسرعة نموه
كان معرضا للعطب قال وتمدن أوربا اليوم كان ابطأ في النمو ولكنهم
حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد
في كل ما يبقى النمو وقال في بيان امتداد ملك العرب قد امتد ملكهم
في ظرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما يمتد عظيم الحلقة فاتحا
ذراعيه لالتقاط شيء فبلغ من أقصى الهند الى بيريني الكائنة بين
فرنسا واسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من سبعة عشر الى ثمانية
عشر ألف فرسخ ولم يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية
وقد استمرت الديانة واللسان وأحكام القرآن نافذة في غالب
البلدان التي فتحوها واغتنمت أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات
وصنائع وعلوما وان كان منها ما أخذوه من غيرهم لكن لهم الفضل
في تهذيب ذلك وتجايده بعدهم ثم في النصف الثاني من القرن
العاشر المسيحي توجه الراهب الفرنساوي جربير الذي جلس على
الكرسي البابوي باسم سلفستر الثاني الى مسلمي اسبانيا وقرأ هنالك

علم

علم النجوم والفلك وأجرى لاهل أورباالنصرانية منهلا جديدا من معارف العرب وجمع خزانة جليلة من الكتب وصنع كرتى السماء والارض انتهى ما امكن تلخيصه من كلام الوزير المشار اليه (أى دروى وزير المعارف بفرنسا) وفى تاريخ العرب لسديو مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا واحد أعضاء جمعية المعارف بها ما معناه انى مدة مدة طويلة تزيد على العشرين سنة وأنا مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الامم فيما يتعلق بالعلوم والقدم فى التمدن مدة قرون متطاولة من أيام اليونان بالاسكندرية الى أيام العصر الجديد فلزمنى ان أجمع ما تيسر لى من الادلة على عظم هذه الامة التى لم يعرف قدرها الى الآن واعرضه على ما اعتبرى من تكلم عليها فى تأسيس تاريخها عموميا وان كان ذلك مما لا تفى به طاقة انسان واحد وقبل الشروع فى ذلك على وجه الاختصار يلزمنى ان أندب الناس الى التأمل فى أحوال هذا الجنس الذى كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه فى سائر معازيه ولم يزل مدة أربعة آلاف سنة على حال واحد فى اكتساب الفضائل والمزايا التى تميزها على غيره والتراتيب والعادات الخاصة به ومن جميع ذلك ان الوقت الذى كانت فيه الممالك القديمة فى مبدأ تكوينها ذات حيرة كان هذا الجنس اذذاك قائما بنفسه قادرا على الاغارة على غيره فقد كانت ملوك بابل ومصر من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرنا قبل التاريخ المسيحى ثم بعد ان رجع الى حدوده الاصلية دفع عن نفسه

سلالة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط قيصر واسكندر ودام
فى استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا وبعد ظهور
النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى جمع العرب أمة واحدة تقصد
مقصدا واحدا ظهرت للعيان أمة كثيرة مدت جناح ملكها من نهر
طاج فى اسبانيا الى نهر الغانج فى الهند ورفعت على منار الاشادة
أعلام التمدن فى أقطار الارض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات
اهلها فى القرون المتوسطة كأنها فقدت بالمرة ما كان عندها من
التمدن الرومانى واليونانى وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل
العلوم والآداب التى نتجت على أيديهم فان خلفاء بغداد وقرطبة
ومصر وان ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فان سلطتهم الروحانية
لم تزل قوية مطاعة فى كل جهة لاجتهادهم فى توسيع دوائرها بقدر
طاقتهم وقد نال النصارى الذين استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا
بالمخالطة معهم فى الحروب معارفهم وصناعتهم واختراعاتهم ثم المغل
والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدمة فى العلوم
لمن تغلبوا عليها من فرق العرب والى الآن لم نطلع فى أوربا على الاصول
التى تبين لنا عادات العرب اطلاعا تاما اذ لم يعرف عندنا من
تواريخهم الا تواريخ أبى الفداء وأبى الفرج والمقريزى وابن
الاثير ونبذة من تاريخ ابن خلدون ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة
ولو نجد من يترجمها لنا وان كان المقدار الذى عندنا كافيا فى رد
غلط من غلط من أهل أوربا فى شأن العرب ثم انى ذكرت فى تاريخنا

هذا

هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الاولين و بتاريخ بنى أمية فى دمشق وقرطبة و بتاريخ دولة بنى العباس فى بغداد والفاطميين بمصر وبانقسام الممالك الاسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وردت عليه شيأ لم يوجد فى التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن العربى الذى توضحت عروقه فى الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا وفى أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد فى المعارف والعلوم فكانت اذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة وأصبهان تتسابق فى ميدان العلوم مع بغداد تحت بنى العباس وترجمت فى تلك المدة كتب اليونان وقرئت فى المدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم فى جميع مواد المعارف الانسانية فنتج عنها من الاختراعات العربية ما شاع صيته فى أوربا فتبين بلا اشكال ان العرب هم أساتذتنا بلا انكار لانهم جمعوا الادوات المؤسسة عليها انوار بحثنا المتوسطة و بدأوا بكتابة الرحلات واخترعوا التآليف فى تاريخ وفيات الاعيان ووصلوا فى صناعة اليد الى غاية لاتحد و بقية آثار أبنيتهم مما يدل على اتساع معارفهم وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيان افضالهم التى لم يزلوا الى الآن منزلتهم التى يستحقونها بسببها فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبعى والكيميا والفلاحة لما جاءت فى أيديهم زاد فيها العرب مع كونها من المحسوسات التى لا نعرف لها مفهوم

صرفا تاما فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهادا يفوق
الحد من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس عشر ثم تقول
ما نسبة ما عرفناه الآن منهم بحثا الى ما بقي مجهولا لنا من ذلك
وبالجملة فالعرب هم منبع فهومنا ومعارفنا ولم نزل الى الآن نطلع على
أشياء من مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم
ثم قال في شأن التمدن العربي انهم كانوا في القرون المتوسطة
مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم سحائب
البربرية التي امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات
المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم
الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع
دوائرها وفتحوا طرقا جديدة لتأمل العقول في محاسنها ثم استشهد
بقول اسكندرهمبلط ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين
الامم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات الى الوادي الكبير في اسبانيا
وبين العلوم وأسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على أيديهم لان لهم
بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيرا لا يشبه بغيره
فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد
من الناس فيخالطون غيرهم من غير ان يختلطوا به ولا يتبدل طبعهم
بكثرة المخالطة ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه وما أخذت أمم
المانيا في التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب
فانهم كانوا يحملون التمدن معهم فحيثما حلوا حل معهم فيبثون

في

فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التى هى أساس بنى عليه (المستعمر والتر بدور) ثم قال بعد ذلك ونعود الآن فنقول انه ثبت عندنا بما صنعه العرب واخترعوه برهان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته الى أوربا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا ونحن نعترف به أساتيذنا ومعلموا انتهى ما نقله الوزير الاعظم خير الدين باشا عن هذين المؤرخين الشهيرين وفيه لاولى الالباب كفاية

وما كان لهذه الامة من سعة المعارف والتقدم فى ميادين الفضل انما كان ناشئا عن اتحاد ممالكها وسياسة ملوكها ووضعهم الامور فى مواضعها واحترامهم للاصول الشرعية وتفويضهم أزمة الاحكام لذوى الدراية والكفاية ونظرهم فى أهميات السياسة نظر العاقل الحكيم وعدم استبدادهم فى أمور الامة ومشاركتهم لارباب الحل والعقد من الرؤساء والعلماء فيما ينبغى اجراءه فى احوال المملكة وسياستها من جلب نفع أودفع مكروه ولا كما يتوهمه البعض من ان الملوك فى صدر الدولة الاسلامية كانوا مستبدين بالامر دون أرباب الحل والعقد بل الامر بخلاف ذلك فان مهمات السياسة والادارة فى المملكة لا يتم نظامها مالم تطرح فى ميدان التأمل والتدبر وتبدى أرباب الحل والعقد آراءهم فى ذلك على مقتضى الظروف ومناسبات الحال فانهم على كل حال أدرى باحوال الرعية لتردد نظرهم للناس والوقوف على ما يناسب حالهم وأطوارهم فان

الملك مادام ملتزما قصره دون مائة حجاب لا يتمكن من رؤية أحد الا الوزراء والكبراء قل ان يقف على حقيقة أطوار عامة الناس وأحوالهم ولو مهما عرفوه بذلك وليس الخبر كالعيان لذلك كانت سياسة الخلفاء غير خارجة عن اتحاد الآراء واقرار العلماء والوزراء سواء على جلب نفع أو دفع مكروه ومما يحقق ما قلناه سير السياسة العربية على منهج واحد وثبات ملكها وتوالى نمو نجاحها حين ما كانت أمور الامة لا تصدر عن الملك ما لم يقرها أرباب الحل والعقد بعد التروى والاختبار الى قيام المتوكل الخليفة العاشر من العباسيين (وذلك فى سنة ٢٣٢ هجريه) لما أراد الاستبداد بالامر وكسر شوكة أمراء المملكة واهمال السياسة سبب انقسام هذه الدولة وتفرق كلمتها الى ان نشأ عن ذلك ضياع الملك من أيدى العباسيين وخراب البلاد وتشتت الكلمة وذلك بان استدعى من أمراء الاتراك ورعاعهم من سلمهم قيادة الجيوش وولاهم الحرس وسلم بعضهم ازمة الاحكام وقربهم منه وأدناهم وأبعد أمراء العرب وصادرهم ومنهم من قتله كالوزير محمد بن عبد الملك الزيات فانه أخذ جميع ماله وعذبه فى السجن ثم قتله شر قتلة وقوى شوكة هؤلاء الاعراب الى ان صارت بيدهم مفاتيح الامور وعظم محلهم فى قلوب الناس لما رأوا من مكانتهم من الخليفة حتى خالفوا الاحكام ومدوا يد التعدى على الناس وأول ما فتكوا بعد تمردهم كان بنفس الخليفة المتوكل وهبوا عليه فى مجلسه ليلا يتقدمهم احد أمرائهم المدعو

يعني الصغير وهبروه بالسيوف ثم أقيمت بعده البيعة لابنه المنتصر ثم اخذت أمور الخلافة السياسية بالانحطاط وتراجعت تلك الامة عن مركزها الاصلي الى الوراء عندما عظمت شوكة الاغراب وتلاعبت بالملك يد الاغراض والاهواء واستبد الامراء بالاطراف وأوجب الامر واختلاف الآراء الى انقسام هذه الدولة الى عدة دول لا محل لذكرها هنا ما بين أمير مستقل وعاص مستبد وملك متغلب الى غير ذلك من الانقلابات التي كان سببها التفريط وحب الاستبداد بالامر وتداخل يد الاغراب بالملك على ان أول انقسام حصل في دول الاسلام انقسامها الى ثلاث العباسيين في بغداد والعلويين في مصر والامويين في الاندلس (أي الغرب) لكن كانت كل دولة قادرة حينئذ على الاستحصال على أسباب التقدم والفتوحات والمدافعة عن الملك انما الخلل الذي طرأ عليها وسبب تلاشيها هو انقسام الانقسام أيضا في المشرق وأما الغرب فانها صارت أشبه بملوك الطوائف بعدما نالت في زمن الامويين من العز والمنعة والتقدم في المعارف ما طبق بصيته الآفاق ثم ترتب على انقسامها سقوط الاندلس من يد المسلمين وفضلا عن تلك الانقسامات وبينما جروح هذه الامة تقطر بالدم وما اندملت بعد من جرى هذه الانقلابات اذ دهمها هلاكو بجيوش التتار سنة ٦٥٥ هجريه فخرب ممالك الاسلام وانقرضت من يده الخلافة العباسية في بغداد وكان آخرها المستعصم ثم تلا ذلك نكبة تيمور التي فعلت بالممالك الاسلامية

ما سود صحف التاريخ بذكره الشنيع وأفقد الاسلام بقية ما كان لهم اثر تلك الاهوال من الصنائع والمعارف ودرس أعلام الفضل وذهب بأرباب الفنون الى بلاده فيما وراء النهر

ثم في اثناء ذلك صدم المسلمين تيار أعظم من ذلك وأشد وهي الحروب الصليبية التي دامت حروبها في الشرق متواترة وجيوش الافرنج اليها متقاطرة مدة جيلين حتى هلكت العباد وضاق بالناس الزرع وتعطلت أسباب العمران الى أن سخر الله رجال الدولة الايوبية التي أطفأت تلك الفتنة العظيمة وانتهى من ثم الخصام بعد مواقع وحروب بين المسلمين والافرنج دارت بها الدائرة أخيرا على الافرنج وطردهم المسلمون من الشرق وارتاحت بعدها نوعا الخلائق

فهذه كانت عاقبة الانقسام وتعدي السلاجقة على النصارى والاجانب الزوار وجلب هذه الحرب العظيمة التي كانت سببا لفقدان أعظم المعارف الاسلامية ووسيلة توصل بها الافرنج الى أسباب التمدن والوقوف على المعارف الاسلامية بكثرة المخالطة التي أدتهم اليها هذه الحرب العظيمة

ثم بعد تلاشي واضمحلال دول الخلفاء وغيرهم من ملوك العرب مازالت الدول التي تشعبت بعدها في صعود وهبوط الى أن تأسست سنة ٦٩٩ الدولة العثمانية وضمت اليها جميع الممالك الاسلامية المتفرقة وأحسنت السياسية مع الناس وسارت أمور ملكها على قدم النجاح باحترام ملوكها للاصول الشرعية وردت

للعالم الاسلامى روح القوة والمجد ولم تزل الى الآن صاحبة السيادة فى كل مكان ومن مشاهير ملوكهم السلطان سليمان ثم لما أفضت الخلافة فى وقتنا هذا الى السلطان ابن السلطان ابن السلطان الغازى عبد الحميد خان أشرقت شمس الخلافة فى برج جديد وقوم هذا الملك العادل أود ممالكه بأسنة من القوانين العادلة وبث أسباب التمدن وروح العلوم والمعارف بين الناس ولم يزل أدام الله سلطانه باذلا جهده فى تقدم ممالكه المحروسة بما يجريه فيها من الاصلاحات والتنظيمات وانشاء المدارس وتعميم المعارف رغما عن مقاومة المكابرين وما يحول دون ذلك من الصعوبات مما هو مشاهد بالعيان وما يؤمل به تقدم ممالكه الى درجة الكمال من التمدن والعمران أيد الله سرير سلطنته وشيد بالعز أركانها ونصر مدى الزمان أعوانها اهـ

﴿ ذكر نبذة تتعلق بالتمدن الاوروباوى ﴾

اعلم أن انتشار التمدن فى أوربا انما كان ابتداؤه فى اسبانيا حين ما كان المسلمون مستولين عليها وقبل ذلك كان أهالى أوربا لا يعرفون سوى القتل ولا يتفاخرون بغير السلب والنهب لكن لكثرة مخالطة الاسبانيول والافرنج لمسلمى الاندلس وغيرهم أخذوا عنهم بعض فوائد جيدة وعلوم مفيدة ومن ثم امتد التمدن الى فرنسا وانكلترة حتى عم جميع أوربا وذكر فى مقدمة أقوم المسالك أن الامبراطور شارلمان الذى أسس دعائم السياسة والاحكام كان أول ملك ظهر فى أوربا من وقت سقوط الدولة الرومانية الى سقوط دولة الاغريق التى

كان تحت مملكتها القسطنطينية العظمى وهو الذى أدخل العلوم
والاعمال المالكة وكان يفنى غالب أوقاته فى قراءة العلوم وكان
مجلسه محفوفا بالعلماء وأسس فى باريس مدرسة جامعة لسائر المعارف
وبمثل هاته المآثر حصل من السمعة فى أقطار الارض ما استمال
الخليفة هرون الرشيد الى صحبته ومهاداته بتحف منها ساعة لم تزل الى
الآن فى احد قصور فرنسا (وهى الساعة التى مر معنا ذكرها)
قال ثم بعد وفاة الامبراطور المذكور وفقدان تدبيره تعطلت تلك
المصالح وتنازلت أوربا وبقيت مغمورة فى دجى الجهول ستمائة سنة
وفى هاته المدة كانت وطأة الاقدام البربرة الذين كانت دولهم تتداول
عليها ومع ذلك الفشل التام فان أهل الكنيسة منهم كانوا محافظين
على المعارف وعلى اللسانين اللذين لولاهما ما انتفع بتلك الكتب
وهما اليونانى واللاتينى فالناس ممنونون لهم بذلك وفى القرن الحادى
عشر الذى هو خامس قرون الهجرة النبوية ظهرت مبادئ علوم
وصناعات وهندسة فى الابنية فانتشرت مبادئها كل فى الناحية
الغربية من اوربا وأخذ علم الفلسفة فى النمو بين محاورات كلامية
ومنازعات جدلية وظهر حزب الفرسان الذين اشتهروا باسم الكفالير
وهم جماعة من وجوه الناس تعاهدوا على أن يحاربوا فى الله للمدافعة
عن حرية النسوة والمستضعفين من سائر الاهالى وأن لا يلاحظوا
فى أعمالهم لاسيما المحاربة سوى مقتضيات الشرف الانسانى وعلو الهمة
ولو مع أعدى الاعادى مثلا يرحمون من يسترحمهم ولا يجهزون على
جريحهم

جربهم ولا يبتزون سلب قبيلهم ومن أواخر هذا القرن الى أواسط القرن الثالث عشر كانت حروب الصليبيين مع المسلمين لافتكاك بيت المقدس وقطع استيلائهم على الامم فى زعمهم قال وانما أشرنا لهاته الحروب والفرسان لبيان ما لها من الدخل فى التمدن الاوربا وى فان مؤرخيهم يقولون ان تلك الحروب وان هلكت فيها نفوس عديدة وأموال غزيرة بدون الحصول على المقصود بالذات فانها أعقبت نتائج نافعة لهم منها انهم من ذلك الوقت شرعوا فى ترتيب العساكر وتعلموا واصلتهم لاهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخلقوا باخلاق الحضر وتعودوا بالاسفار لاستكشاف أحوال الاقطار واطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين كما ذلك مبين بتأليف (ماركو بولو) وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاورباويين للامة الاسلامية المتقدمة امامهم فى التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم لاسيما فى القرن الثالث عشر ثم تهذب حتى وصل الى ما هو مشاهد اليوم

ومن أعظم الاسباب التى اعانت أوربا على التمدن اختراع الطبع الذى سبب انتشار العلوم وشاعت من المنفعة بين الامم ما لا يوصف قيل ان الذى اخترع طبع الكتب غتمبرغ من أهالى ميانس بالمانيا وأول ما طبع منها كتاب فى أشعار اللغة اللاتينية وذلك فى أواسط القرن الخامس عشر وقال بعض المؤرخين صناعة الطبع قد اختلف الاقوال فى مخترعها فبعضهم نسبها الى منتز وبعضهم الى

استرابورغ وهارلم وبعضهم الى فينيسيا ورومية وبعضهم الى فلورنسة وباسيل وفي رواية ادريان جونيوس ان مخترع الطبع هو يوحنا كستر من هارلم طبع على خشب كتابا فيه حروف وصورة لى وجه واحد وذلك في سنة ١٤٣٨ قال وفي سنة ١٤٤٣ انشأ يوحنا فوست مطبعة في منتز وطبع فيها كتابا وزعم بعض ان أول كتاب طبعه كان كتاب المزامير وقال آخر لا شك ان الطبع كان معروفا عند أهل الصين وذلك قبل تاريخ المسيح باحقاب عديدة والاقوال في ذلك كثيرة والاصح ان انتشار الطبع لم يكن الا في الازمان الاخيرة

وبالجملة فالطبع هو السبب الاعظم لانتشار المعارف والعلوم وقد أعان أوربا على انشاء المدارس الكثيرة وتعميم الفوائد والعلوم حتى أضحت مدارسها لا يعزب عنها علم من العلوم ولا فن من الفنون وحازت أهاليها من التمدن أسمى مكان وقد تفننوا في كل شيء وبرعوا في كل فن وأصبحوا أحسن العالم ثروة وأعظمهم تجارة بعد ما كانوا أسوءهم حالا وأقلهم مالا وتسابقت علماؤهم ومؤلفوهم الى الاختراعات العجيبة والتآليف المفيدة وتعميم المعارف وتأسيس المدارس والمعامل واصطناع الادوات والآلات لتشغيل الصنائع واخصها المنسوجات التي بها توسعت دائرة التجارات الاوربوية وحازت اوربا تمام الثروة والغنى حتى قيل كما في كشف المخبا انه بلغ في سنة ١٨٧٤ عدد المعامل في انكلترا وواِلس وسكوتلاند وارلاند (١٢٧٤) معملا وعدد المستخدمين والصناع فيها (١٠٠٠٥٦٨٥)

منهم

منهم (٠٤٤ر٣٩٤) ذكورا (٦٤١ر١٦١) اناثا وبلغت البضاعة التى خرجت من انكلترا الى الخارج فى سنة ١٨٧٩ (٥٣١ر٧٥٨ر ٥٩١) ليره وبلغت قيمة المجلوب لفرنسا فى السنة المذكورة (٤٨٠ ر٧٩٣ر١٨٣) ليره انكليزية (جنيه) و بلغت جملة الخارج منها فى السنة المذكورة (٦٠٠ر٥٢٣ر١٣٦) ليره وفى الاحصائيات أن قيمة المجلوب الى بلاد الروسيا بلغت فى سنة ١٨٦٠ (١٠١ر٢٨٣) روبلا وكل روبل عبارة عن أربع فرنكات وقيمة الخارج منها بلغت (٠٢١ر٨٥٤ر٥٢) وبلغت قيمة المجلوب الى أوستريا فى السنة المذكورة (٤٧٢ر٦٣١ر٣٢٩) فلورين وكل فلورين عبارة عن فرنكين ونصف و بلغت قيمة الخارج منها على ماذكره فى كشف المخبا (٧١ر٨٢٩ر٣٠٦) وهذا كله عن احصائيات سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٧٩ مسيحية فكم تكون تحسنت الحال من وقتها الى الآن يعنى سنة ١٨٨٧ وأظنه أضعاف ماذكر لان الاشغال والتجارات الاوروباوية آخذة بالنمو والازدياد يوما عن يوم وقال انه يوجد محل فى ارلاندا لشخص أحد الانكليز فيه أربعة آلاف شخص مستخدمين فى عمل القمصان يصنعونها بالة النار وهذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص فاى فرق يرى الآن فى بلاد الانكليز وقد صارت تمد جميع الدنيا بمصنوعاتها وتكسو الناس والديار والحيوان بمنسوجاتها بعد ان كانت تبعث الثياب الى هولاندا لتصبغ هناك وتعاد اليها ثانيا وبعد ان كانت تنتظر أحد التجار من

فرانسا وغيرها ان يأتي اليها ويبث فيها صنعة من الصنائع فان هذا الديباج الذي يسمونه دامسك (دامسقو) أصل صنعه كان في دمشق ثم حاكاهم فيه أهل هولاندو في سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم الامير اماو حوره عليهم فجاؤا الى بلاد الانكليز وصنعوه فيها قال قال مؤلف المخترعات العجيبة أما صنعة النسج فقد كانت معروفة في بلاد الصين من قبل ان تعرف في أوربا بدهر طويل والغزل عندهم والنسج انما هو من شغل النساء وأول من صنع ثياب الصوف في بلاد الانكليز رجلان قدما من برابان ثم قدم من هولاند صباغون و برازون وصناع للحرير وشهروا هذه الصنائع بين الاهلين وذلك في سنه ١٥٦٧ ثم قال في عبارة أخرى واذا نظرنا في أحوال الانكليز منذ القديم وجدنا ان ملابس أهلها انما كانت من جلود الحيوانات وان ثياب زعمائهم لم تكن الا من الكرباس الخشن كالغاهو ومسح حتى ان الفرسان الذين تنوه بهم التواريخ كانوا دائما نزعوا عنهم الدروع للساعة يشف عنها ثياب الجلد فلما عرف النسج في الاعصر المتأخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النساء و بقي الحال على ذلك دهرا طويلا الى ان قيض الله اركريت والقى في روعه استنباط آلة للغزل تكون دائمة الحركة فوفق الى ذلك ونجح ما أمكن قال ولد اركريت المذكور في سنة ١٧٣٢ و بقي الى سن ستة وثلاثين من عمره خامل الذكر مشتغلا بالحلاقة ولم يكد يحصل من حرفته شيأ زائدا على قوت يومه الا انه كان ذا فكر صائب

في

فى جر الاثقال فما زال يعمل فكره فى اختراع آلة الغزل حتى تسنى له
ماقصده لكن بعد صعوبات شتى فلما اشتهر مخترعه اجازت له الدولة
أن يستمد بمنافعه الى مدة مديدة فانشأ معملا فى در بى ولم تمض
عليه مدة حتى أحرز أموالا طائلة وطارد كره بين الناس فحدث
فى استنباطه هذا فى أشغال النسج تغيير عظيم من تنقيص الصناع
وترخيص سعر الثياب اهـ
أقول انما أحببت ايراد هذه الجملة لما بها من العبرة لكل عاقل يرى
كيف ان الانكليز والاجدران بقال جميع أوروبا بعد لبسهم المسوح
والصوف الخشن أصبحوا من التمدن فى درجة خولتهم التفنن
بملابس الحرير والتنعم فى ظلال الرفاهية ورغد العيش وكيف ان
الهمم البشرية تتحرج بالانسان من حضيض الجهل الى ذرى المجد
وكمال التقدم فان ما بلغته الامم الاوروباوية الآن من التمدن
والمعارف والتفنن بالعلوم والصنائع قد جعلها أعلى العالم وأعظمهم
قوة والفضل فى ذلك لذوى العقول القادحة من علمائهم ومخترعيهم
الذين ماتركوا من صعاب الامور شيأ الا ودللوه بما اخترعوه من
الآلات والادوات والصنع العجيبة والتسهيلات الغريبة وأخصها
قوة البخار التى سارت بها السفن البحارية والسكك الحديدية
وتوفرت بسببها نتائج الاشغال التجارية وكثرت المعامل الصناعية
وقرب تواصل الابدان والبلدان الى غير ذلك من المنافع التى تبرهن
عن مزيد تقدمهم بالمعارف وعلوهمهم

قالوا ان أول مخترع لآلة البخار مركيز ورسستر الانكليزي وذلك
في زمن شارلس الاول في سنة ١٦٦٣ وأول تجربة اجراها كانت
في مدفع وذلك بان ملأ نحو ثلاثة أرباعه ماء ثم سد خرقه وفمه وأدناه
من النار نحو أربع وعشرين ساعة فانفلق بدفع شديد فدله ذلك
على ان قوة البخار أعظم مما يدركه الانسان وروى عنه انه قال قد
جعلت الماء ينبعث من الجدول ارتفاع أربعين قدما والاناء الذي
فيه بخار يرفع أربعين اناء ملآت ماء الا ان ما انتجته فكرته لم يكن
كافيا للحصول على تمام تلك القوة أولان الناس في زمانه لم يكترثوا
بذلك ثم في سنة ١٦٩٠ فكر في شأنها المهندس دايمس بابين
الفرنساوي الذي ينسب له الفرنسيس ذلك الاختراع الى ان ركب
في سنة ١٦٩٥ الآلة البخارية بابستون وهو شيء يشبه مدق
المكحلة ثم قام متربيسو كومن ومستر كين فتزجوالد وهودون بلور
ووط وبلطون وبعد ذلك قام القبطان شانك فانشأ سفينة لتسافر الى
كندة في مدة حرب الامريكانيين ونجح وفي سنة ١٦٨١ اخترع بابان
آلة من هذا القبيل ثم قام صفري فصنع اداة لاصعاد الماء وذلك في سنة
١٦٩٨ ثم قام غيرهم وكل منهم اتقن شيأ أو زاد فيه قالوا وأول باخرة
أنشئت في انكلترا كانت في سنة ١٨١٥ وفي ارلاندا سنة ١٨٢٠
وأول باخرة سافرت الى بلاد الهند كانت في سنة ١٨٢٨ وكان انشاء
البواخر الحربية في انكلترا سنة ١٨٣٣ وفي سنة ١٧٧٥ صنع المالكيني
مريا الفرنساوي الآلة المذكورة وألقاها على وادي دوب بفرنسا وفي
سنة

سنة ١٧٨١ ألقى على وادى صون بفرنسا أيضا سفينة كبيرة من ذلك النوع وفى سنة ١٨٠٣ قام بباريس فلطن الامريكانى ووضع على وادى سون أول وابور تام بالعجلات وذلك بمعونة أحد أبناء وطنه ويدعى ليونسطن ولكن لم يتم هذا العمل المفيد بفرنسا لعدم اعتناء الدولة به فى ذلك الوقت ولما آيس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعه الى وطنه فى أمريكا وأشهره بها ويقول أهل فرنسا ان من سوء البخت عدم انجذاب بال الدولة فى ذلك الوقت لهذه النتيجة الباهرة اهـ

وحيث ورد معنا فى معرض الكلام ذكر المدفع فلا بد من ايراد بعض أقوال تتعلق بتاريخ اختراعه قال فى كشف المخبا زعم بعض ان استعمال المدافع كان فى سنة ١٣٣٨ وزعم بعض انها عرفت فى حرب كريسى وذلك فى سنة ١٣٤٦ وقيل ان الانكليز استعملوها فى حصار كالى سنة ١٣٤٧ وقال بعضهم ان برنس والس المعروف بالاسود استعمل درعه وريشته انتصر على فيليب فلوى ملك فرنسا عند شهرهم وكان من أقوى الاسباب التى اعانته على ذلك بعض مدافع كانت مع عسكره فان المدافع لم يشتهر استعمالها قبل تلك الواقعة الا بنحو اثنى عشرة سنة ولم يعلم من كان المخترع لها اهـ

وفيليب المشار اليه ولى الملك فى سنة ١٣٢٨ ويوجد فى برج جرمانيا مدفع طوله ثمان وعشرون قدما ونصف قدم ووسع قطره قدم ونصف ووزن كلته مائة وثمانون رطلا ومائة من البارود أربعة وتسعون

وطللا ويعلم من نقش رسم عليه انه صنع فى سنة ١٥٢٩ فاما احداث البارود فكان قبل استعمال المدافع بعشر سنين وذلك فى سنة ١٣٣٦ يعنى احداثه فى أوربا لان البارود كان معروفا عند الصينيين من قبل المسيح لكن كان استعماله للصلاح لا للتدمير كتمهيد الطرق ودك التلال ونحو ذلك وظن بعضهم ان مخترع البارود راهب من بروسيا اسمه مخائيل شوارتز ولعله نقله عن العرب كما نسب البعض اختراعه اليهم وان صح ذلك فانهم هم أيضا نقلوه عن الصينيين هذا وفى سنة ١٥٤٤ استعمل فرسان الانكليز الفرد اى الطبنجة ومن أعجب ما اخترعه الاوربا ويون سلك البرق (التلغراف) الذى نشأ عنه من الفوائد وتسهيل الاشغال مالا ينكر فضله فمن كان يصدق ان خبرا يستدعى تبليغه من بلد لآخر مسير عشرة أو خمسة أيام أو اقل أو اكثر يبلغ و يأتى جوابه بدقائق قليلة من الزمن فهذا لعمر الحق لمن أعظم ما يحق لمخترعه الشكر وان لا ينكر فضل اختراعه مدا الدهر لما به من الفائدة العظيمة فى تبليغ الاخبار تجارية كانت أو سياسية باسرع من شرب الطير واذا أردنا استقصاء فوائده يكل عنها القلم مع انها أشهر من نار على علم وأما اختراعه فقد كان على ما ذكره فى كشف المخبا بعد تعب وكد وجهد روية ففى سنة ١٧٩٤ نصب ربزد تلغرافا يمكن استعماله الا انه أقل فائدة من المستعمل الآن وقد كان قبل ذلك استدل العلماء على امكان تبليغ خبر من بلد الى آخر باسرع وقت حين استعمل فرنكلين الامريكانى الطيارة المعروفة

المعروفة بالبالون وظهرله خاصية الكهربائية البرقية وذلك انه صعد بتلك الطيارة في يوم ذى دجن وكان قدربط حرستها الى وتدين وأناط بها مفتاحا ولما غشيها الغمام وجد ان بعض خيوطها اقدة هش وتجافى عن بعض منتصبا ادنى برجته من المفتاح فاحس بشرر البرق فتجهر العلماء من ثم في ايجاد طريقة لتبليغ الاخبار للمحلات الشاسعة بواسطة اداة واكتشفوا على أشياء تناسب ذلك الى ان وضع وبزر التلغراف الاقدم ذكره ثم قام بعده من صحح واتقن هذه العملية الى سنة ٨٢٧ اقام الدكتور كوك وويتسطون واخذا رخصة من الدولة لاجراء هذه العملية في بلاد الانكليز وفي سنة ١٨٤٣ نصب المستر ود الاسلاك على دعائم وقد كانت من قبل في الارض تمر من حلق من الفخار وبذلك سهل نصب الاسلاك غليظة من الحديد بدل النحاس فنقصت المصاريف نحو النصف وهكذا مازال العلماء يجتهدون بتحسينه واتقانه حتى استعمل كما نراه الآن وامتد استعماله في انكلترا ثم فرنسا وجميع أوربا الى ان وصل الى المشرق وهم لم يزالوا يوجدون طرقا سهلة لاستعماله ويتفننون بتنظيمه واتقانه وبالهام من مأثرة عظيمة وفائدة عميمة

ولما كانت اكتشافات واختراعات الاوربا ويين التي من هذا القبيل كثيرة جدا فقد اقتصرنا على ما أوردناه منها في هذا الباب نظرا لاهميته وهو دليل كاف على ما لهم من سعة دائرة المعارف التي بلغوا بها أقصى درجة التمدن وحازوا مزيد الشهرة والتقدم وآثارهم

بالفنون والمعارف لا تنكروهي أشهر من ان تذكروماذاك الا من اقبالهم على العلوم وتأسيسهم المدارس العظيمة المنتظمة وتعاضدهم على المصالح الوطنية بكل ماتقتضيه الهمم البشرية والواجبات الانسانية ومن أراد الاطلاع على تمام أحوالهم وأصول تمدنهم وعمران ممالكهم وتقدم بلادهم وتوفر ثروتهم فليراجع كتب التاريخ والرحلات الحديثة التي تحتوي على أخبارهم المشاهدة بالعيان فسبحان خالق الانسان ومزينه بالعقل وهو الهادي الى اقوم السبل انتهى

يقول الفقير رفيق بن المرحوم محمود بك بن المرحوم خليل بك الشهير بابن العظم الدمشقي هذا ما تيسر لي جمعه وايراده في هذا الكتاب فلعل ان تكون به لابناء الوطن فائدة ترشدا الى الصواب وقد استعنت على تصحيحه بالعالم الفاضل والبحر الحبر الفهامة الكامل صاحب الغيرة والفضيلة الشيخ عبد الهادي نجا المصري الابياري حفظه العزيز الباري فارجو ممن اطلع عليه وحل محل القبول لديه ان يعامل قصوري بالغفران اذ انه أول ما تصديت له التأليف وكان الفراغ من تبييضه نهار الاثنين الواقع في ٢٨ جمادى الاولى

سنة ١٣٠٤ هجريه على صاحبها

وعلى آله أفضل الصلاة

وأتم التحيه

بسم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي جعل التمدن والعمران سببا في بقاء نوع الانسان والصلاة والسلام الاتمان على سيدنا محمد أشرف بني عدنان وعلى آله ذوي البراعة الفائقة وأصحابه ذوي الهمم العالية والصفات الرائقة (أما بعد) فيقول الفقير الى الله مصطفى محمد قشيشة قد تم طبع كتاب البيان في التمدن وأسباب العمران وهو كتاب جليل المزية كبير الاهمية وان صغر حجمه فقد عزر علمه فلله در مؤلفه ومحرره ومصنفه فقد أهدي فيه دررا وأوضح غررا حتى استحق المدح بكل لسان على ما أسداه من البيان وكان تمام طبعه بالمطبعة الاسلامية ذات المآثر البهية في يوم الجمعه الموافق ١٤ رجب الاصب من عام أربعة وثلثمائة وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف

﴿ فهرست الكتاب ﴾